
سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (١٥)
دكتور يوسف القرضاوي
البابا والإسلام
رد علمي على البابا بنديكت السادس عشر
في كلمته في ألمانيا التي أساء بها إلى الإسلام
الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

معركة فُرضت علينا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى من اتبع ما جاء به إلى يوم الدين.

وبعـــد . . .

فقد فوجئتُ وفوجئ المسلمون كافة - بل فوجئ العالم كلُّه - في الغرب والشرق، بكلمات البابا بنديكت السادس عشر التي أساءت إلى الإسلام، في عقيدته، وفي شريعته، وفي شخص نبيه عليه الصلاة والسلام.

واعتبر المسلمون عامة: أن هجوم البابا على الإسلام لم يكن له مُبرِّر يقتضيه إطلاقا، إذ لم يصدُر من المسلمين شيء يُوجب توجيه هذه الهجمة إلى الإسلام.

بل الواقع أن المسلمين في كل مكان، جاملوا البابا منذ

تنصيبه على كرسي البابوية، وكنت ممَّن هنَّأ البابا على منصبه، وتلقيتُ بسبب ذلك نقدا شديدا، بل هجوما صارخا من بعض المسلمين.

جاءت كلمات البابا في محاضرة علمية ألقاها في جامعة غوتنبورغ في جنوب ألمانيا، وهي الجامعة التي كان يُدرِّس فيها (علم الأديان) من قبل - ووصل فيها إلى درجة (الأستاذية) - منذ سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٧م.

فلم يكن هذا حديثا إلى الجمهور، ولا حديثا ورَّطه فيه صحفي مُشاغب، ولا حديثا عابراً مع زوَّار له، بل كان محاضرة مُعدَّة مدروسة، تُلقى على أكاديميين مُعتبرين، في جامعة مُحترمة، من أستاذ (بروفيسور) مُتخصص في مادته، مُمارس لها سنين عدَّة، فهو يعي ما يقول، ويعني ما يقول.

وهو باعتباره (بابا)، تُدقَّق كلماته، وتُراجع فكرتها ومضامينها وأُسلوبها، من قبل الأُطر والأجهزة العلمية والفنية من حوله، حتى لا يكون فيها ما يقتضي الاعتذار، أو التراجع منه، وهو ما لا يليق بالبابا الذي يُفترض فيه (العصمة) في زعمهم.

ومع هذا كلِّه وقع البابا في ما وقع فيه، من أخطاء وتجاوزات، لا يُعفيه من تبعتها وتحمُّل مسؤوليتها قوله: إن المسلمين لم يفهموا كلامه! أو إنه لم يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. إذ الكلام الصريح لا يُبحث فيه عن النية والقصد،

فالنية والقصد ترجع إلى صاحبها، وهل يأثم عند الله أو لا؟ ولكن المُؤاخذة تكون على مضمون الكلام، وما يتضمَّنه من صواب أو غلط، من قصد أو شطط.

وكل الذين سمعوا كلام البابا من المسلمين أو من غير المسلمين: استنكروه واستشنعوه، لما فيه من تهجُّم مقبوح على الإسلام، ونبيه عليه الصلاة والسلام.

وليس معقولا أن كلَّ هؤلاء من أهل الشرق وأهل الغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، لم يُحسنوا فهم ما عناه البابا بكلامه. فالأصل في الكلام أنه يقال ليُفهم مضمونه، ويؤثِّر في سامعه، وقد يتطلَّب منه عملا يقوم به، إيجابا أو سلبا. ولا سيما كلام رجل كالبابا له منزلته الدينية والعالمية، وخصوصا بين أتباعه من الكاثوليك، الذين يُضفُون عليه القداسة!

أجل، لم يكن هناك أي توتُّر بين البابا وأي فئة من المسلمين، ولا وُجِد باعث ظاهر يدعو إلى رمي هذه القذائف، إلا أن يكون البابا قد أراد أن يُهدي إلى الرئيس الأمريكي بوش – ومعه اليمين المسيحي المُتصهين – هدية تشدُّ أزره في مُحاربة الإسلام تحت عنوان (مُحاربة الإرهاب). فأراد البابا أن يمنحه غطاء دينيا – وإن كان كاثوليكيا – يسنده ويُبرِّر تصرفاته في العراق وغيرها، ما دام يُحارب الإسلام الذي يحمل بذور العنف في تعاليمه، والذي لم يجئ نبيه إلا بالأشياء الشريرة، واللاإنسانية، ومنها نشر دينه بالسيف.

كما اتَّهم البابا الإسلام بأنه بفرضه الجهاد - أو الحرب المقدسة كما سمَّاها - يُنافي العقل، كما يُنافي الطبيعة الإلهية.

وزعم البابا فيما نقله نقل المقرِّ له: أن المشيئة الإلهية عند المسلمين لا يحدُّها شيء، ولا يقيِّدها شيء، ولا بأيِّ نوع من المعقولية.

واتَّكأ البابا على فِقرة نقلها من كتاب للإمبراطور البيزنطي (الأرثوذكسي): مانويل الثاني الذي نشره رجل الدين الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري: حوارات مع مسلم، (المحاورة السابعة) وهي فِقرة مُسفَّة غاية الإسفاف، تتَّسم بالجهل الفاضح، والتحامل الواضح على الإسلام.

وحين أظهر العالم الإسلامي غضبه على هذه الكلمات المُسيئة، ومنها: ما أصدره الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين من بيانات [1]، زعم البابا أنه ناقل، وكما يقول علماؤنا: ناقل الكفر ليس بكافر. ولكنه نقل هذا الكلام مُستشهدا به، ولهذا لم يردَّ عليه.

من هنا كان علينا نحن أن نردَّ على الكلمات المثيرة التي أساءت إلى عقيدة الإسلام، وإلى شريعة الإسلام، وإلى نبي الإسلام، وإلى كتاب الإسلام، وإلى حضارة الإسلام، وإلى أمة الإسلام.

---

(١) انظر: الملاحق في آخر الكتاب: ملحق (١)، وملحق (٢).

وسيكون ردُّنا ردًّا علميا موضوعيا موثَّقا بالأدلَّة القاطعة من نصوص الإسلام ومن تاريخ أمته، ومن كتاب القوم المقدس أيضا، ليهلِك مَن هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة.

لا ننكر أن في لقاء البابا في جامعة غوتنبورغ بعض الجوانب الإيجابية لا بد أن ننوِّه بها، إحقاقا للحقِّ، وإنصافا للرجل، وقد علَّم الإسلام المسلم: أنه إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقِّ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٨].

فقد ذكروا أن البابا أكَّد على ضرورة تعميق أُطر الحوار بين العالمين المسيحي والإسلامي، معتبرا أن العالم الغربي، قد فقد الاعتقاد بالله في خضم النفعية العملية، (وأزيد على هذا: وفي خضم المادية الحسِّية، والإباحية البهيمية).

كما قالوا: إن البابا دعا: الرئيس الألماني (هورسف كولر) إلى ضرورة أن تعمل الدولة الألمانية على تحقيق اندماج أفضل للمسلمين المقيمين داخلها، محذِّرا من الإفراط في التعقيدات تجاه أبناء الأقلية المسلمة.

فهذا لا يسعنا إلا أن نقدِّره للبابا ونشكره عليه. وقد علمنا ديننا: أنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس [1].

كما نقدِّر للبابا موقفه المحافظ من التيارات الإباحية المنتشرة في الغرب اليوم، والتي باركتها - للأسف - بعض الكنائس، مثل: الزواج المثلي، وإباحة الإجهاض بإطلاق، ونزع أيدي الوالدين من تربية أولادهما. وهو ما وقف فيه الأزهر والجهات الإسلامية المختلفة مع الفاتيكان في موقف واحد، ضد هذه الاتجاهات المنحرفة، وذلك في مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤م. ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م، وغيرها.

ولكنا ننتقد بقوة موقفه من الإسلام؛ الذي لا يقوم على أساس منطقي أو علمي أو تاريخي، والحقُّ أحق أن يتَّبع وينصر.

وإلى القارئ الكريم: بيانا حول هذا الموضوع.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدوحة في: رمضان ١٤٢٧هـ
سبتمبر ٢٠٠٦م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

---

(١) إشارة إلى حديث رواه أحمد في المسند (٧٥٠٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤)، وقال: حسن صحيح، والطيالسي في المسند (١/٣٢٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، والبيهقي في الشعب (٦/٥١٦)، وفي الكبرى (٦/١٨٢)، عن أبي هريرة، ونصه: "مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله".

الجزء المتعلق بالإسلام
من محاضرة البابا

بعد حديث عن ذكرياته في الجامعة، وعلاقته بزملائه وغيرهم: قال البابا: (راودت كلُّ هذه الأفكار بالي لما قرأتُ مؤخرا القسم الذي نشره الأستاذ ثيودور الخوري (منستر) من الحوار الذي أجراه القيصر العلامة مانوال الثاني باليجيوس، وهو حوار يعود تاريخه إلى ١٣٩١م في مجلة أنقرة الشتوية، أجراه الإمبراطور مع متعلم فارسي حول المسيحية والإسلام وحقيقتيهما. ولعل القيصر قد صاغ هذا الحوار خلال حصار القسطنطينية بين ١٣٩٤، ١٤٠٢م.

وذلك ما يمكن أن يُفهمنا لم جاءت مداخلاته أكمل من مداخلات محاوره الفارسي، ويشمل الحوار: **مجال التحريفات والإضافات العقدية كلها في التوراة والقرآن، وهي تدور بالخصوص حول صورة الرب وصورة الإنسان**، وكما هي الحال دائما وبالضرورة تعرَّضت إلى العلاقة بين (الشرائع الثلاثة) كما يقال، أو حول (سنن الحياة الثلاثة): العهد القديم والعهد الجديد

والقرآن. لكنني لا أريد أن أتناول من هذه المسائل في محاضرتي إلا مسألة واحدة - وهي تعدُّ بالأحرى مسألة هامشية في بنية الحوار الذي دار بينهما - مسألة خلبت لُبِّي بسبب صلتها مع غرض الإيمان والعقل، وإني جاعلها منطلق تأملاتي في العرض.

ففي المناظرة السابعة التي نشرها الأستاذ الخوري تطرَّق الإمبراطور إلى الكلام على مسألة الجهاد أو الحرب المقدَّسة. فالقيصر كان يعلم بكل يقين أن الآية (٢٥٦) من البقرة تقضي بأن: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾. وهي آية من السور الأولى التي نزلت لما كان محمد - كما قال لنا العارفون - لا يزال عديم القوة وواقعا تحت التهديد.

لكن القيصر بالطبع كان يعلم كذلك أن آيات أخرى من القرآن نزلت بعد ذلك، تتضمن تحديدات وتدقيقات أخرى حول الحرب المقدسة. ودون الدخول في الجزئيات، كالكلام على الفرق بين معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين، توجه الإمبراطور إلى **محاوره بغلظة نعجب لها**، غلظة تفاجئنا نحن الآن، سائلا بكل بساطة عن القضية المركزية الخاصة بالعلاقة بين الدين والعنف. فقال: (أرني مع ذلك ما الجديد الذي أتى به محمد؟ وسترى أنه

لم يأتِ إلا بكل ما هو شرٌّ وغير إنساني، مثل: أنه يوجب نشر العقيدة التي يبشر بها بحدِّ السيف).

ثم إن القيصر واصل كلامه بعد تسديد هذه الضربة، ليعلِّل: لم يعتبر نشر العقيدة بالعنف مناقضا للعقل؟ فذلك يعارض جوهر الله وجوهر النفس. قال: (إن الرب لا يحب الدم. ولا يلائم العقل أن يعمل الإنسان عملا يعارض جوهر الرب. فالعقيدة ثمرة النفوس وليست من نتاج الأبدان، لذلك فمن أراد أن يدعو إنسانا ليقوده إلى الإيمان، لا بد أن يكون قادرا على الكلمة الطيبة والفكر الصحيح لا على العنف والتهديد ... والإنسان لا يحتاج ليقنع نفسا عاقلة إلى يده ولا إلى أدوات الضرب أو إلى أي أداة يستطيع أن يهدِّده بالقتل بواسطتها).

والجملة الحاسمة في هذا الاستدلال ضدَّ تغيير عقيدة الناس بالعنف تنص: (لا يلائم العقل أن يعمل الإنسان عملا يعارض جوهر الرب).

وقد علَّق ناشر الحوار ثيودور الخوري على ذلك قائلا: إن هذه الجملة بيِّنة بنفسها عند القيصر، فهو بيزنطي نما في بيئة الفلسفة اليونانية. أما بالنسبة إلى العقيدة الإسلامية فإن الله

مطلق التعالي، وإرادته في حلٍّ من كل مقولاتنا حتى لو بلغ الأمر إلى مقولات المعقولية. ثم أيَّد الخوري تعليقه هذا مستشهدا بإشارة المستشرق الفرنسي المشهور روجي أرنلداز إلى ما يراه ابن حزم، الذي يذهب إلى حدٍّ اعتبار الله ليس قادرا على أن يُخلف وعده فحسب؛ بل هو يذهب إلى القول بأن لا شيء عنده يوجب عليه أن يكشف وحيُه الحقيقةَ للبشر، ولو شاء الله لجعل الإنسان للأوثان عابدا [1].



(١) من ترجمة الكاتب المعروف أبي يعرب المرزوقي لمحاضرة البابا، وقد أرسلها إلينا مشكورا، مع تعليقاته القيمة على المحاضرة.

تمهيد
الكاثوليك والإسلام

إذا كان البابا بنديكيت السادس عشر قد أساء في محاضرته إلى الإسلام، فليست هذه أول مرة يسيء فيها الكاثوليك إلى الإسلام، ويتطاولون عليه، فقد حدث ذلك أكثر من مرة.

حدث من دول مثل فرنسا وإيطاليا، فرأينا تجبُّر فرنسا في استعمارها للجزائر، ومحاولتها طمس هُويَّتها، بحربها المستمرَّة على الإسلام واللغة العربية، وهما الأساسان القويان لهُويَّة الشعب، وكم حوَّلت المساجد إلى كنائس أو متاحف، وكم ... وكم ...

ورأينا تجبُّر إيطاليا على الشعب الليبي في فترة استعمارها له، ومعاملته بكل قسوة وجبروت، وخصوصا مَن قاوموا الاستعمار، مثل عمر المختار ورفاقه.

وقبل ذلك بخمسمائة عام أو تزيد (سنة ١٥٩١م) ساهمت الكنيسة الكاثوليكية مع الدولة الأسبانية في إبادة المسلمين من بلاد الأندلس في إسبانيا، عن طريق التنصير أو القتل أو الهجرة غير الآمنة التي لا توصِّل إلى بلد إسلامي، وانتهى الوجود

الإسلامي نهائيا من الأندلس، بعد أن ظلُّوا فيها نحو ثمانية قرون، أقاموا فيها حضارة شامخة متوازنة، تعلَّمت منها أوربا، واقتبست من نورها ما ساعدها على الخروج من ظُلُمات القرون الوسطى.

ورأينا في العصر الحديث: الذين يصوِّرون الإسلام على غير حقيقته، ويشوِّهون صورته لجماهير المجتمعات الغربية، لينفِّروهم منه، وكتب في ذلك من كتب من المستشرقين والسياسيين - ناهيك بالمبشرين - وغيرهم، وصبُّوا جام حقدهم على الإسلام، مِنْ كل مَن لا يزال يحمل في إهابه الرُّوح الصليبية!

ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تعرَّض الفيلسوف الفرنسي المعروف (رينان) للإسلام بالنقد العنيف، في محاضرة قريبة في اتجاهها من محاضرة البابا، في جامعة (السوربون) في باريس، عن (الإسلام والعلم)، ردَّ عليها السيد جمال الدين الأفغاني ردًّا موجزا، وردَّ عليها الإمام محمد عبده ردًّا أكثر بيانا وتفصيلا.

وكان مما قاله رينان في محاضرته: (أن الإسلام لا يشجِّع الجهود العلمية، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد للغيبيات، وخوارق العادات، وإيمان تام بالقضاء والقدر).

وقد صوَّر رينان: عقيدة التوحيد - التي هي جوهر العقيدة الإسلامية - بأنها تؤدِّي إلى حيرة المسلم! كما أنها تحطُّ به - باعتباره إنسانا - إلى أسفل الدرك!

والحقيقة أن عقيدة التوحيد هي التي تُحرِّر الإنسان من

الخوف والذلّ واليأس والكآبة والقلق، وتضع يد المسلم في يد الله، وتمدُّه بقوة خارقة، حين يعلم أن الله معه، وأنه قريب منه، وأنه يعلم سرَّه ونجواه، وأنه حافظه وحاميه، فيشعر بالأمن والسكينة التي لا يشعر بها الجاحدون، ولا الشاكُّون، ولا المشركون، والقرآن يعتبر الشرك انحطاطا بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١].

والقول بأن الإسلام يرفع الإله عن الإنسان في علاء لا نهاية له! قول صحيح في ذاته، ولكنه لا يمثّل الحقيقة كلّها. فإن الله هو الكبير المتعال، والإسلام يفرِّق بوضوح بين المخلوق والخالق، وبين الباقي والفاني، وبين المحدود والمطلق، فهو تعالى (فوق عباده) وهو (الرب الأعلى) ولكنه - مع هذا - قريب من عباده: ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق: ١٦].

كما فسَّر (رينان) عقيدة القضاء والقدر، بأنها تعني: الجبر، وسَلبه إرادة الإنسان ومسؤوليته عن عمله، وهو موضوع طويل الذيول، كثير التفاريع، اختلفت فيه الأديان والفلسفات قديما وحديثا، ومَن رجع فيه إلى القرآن يجده بوضوح يحمِّل

الإنسان تبعة ما يعمل، يقول القرآن: ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها** ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿ **مَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لنَفْسه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضلُّ عَلَيْهَا** ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ **مَنْ عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ **وتلك الْجَنَّةُ الَّتي أُورِثْتُمُوهَا بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٨].

وبعد رينان جاء فرنسي كاثوليكي آخر، ليسيئ إلى الإسلام وأمته وحضارته، بمقالة يكتبها، تنشرها الصحف الفرنسية، ذلكم هو مسيو (هانوتو) المستشرق الفرنسي، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية. والتي تُرجمت مقالته ونشرتها صحيفة (المؤيد)، التي كان يصدرها الصحفي الشهير الشيخ علي يوسف، والتي كان لنشرها صدًى واسع في الناس، أثار الرأي العام الإسلامي في مصر، وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر (١٩٠٠م) الموافق (١٣١٧هـ).

وقد تصدَّى للردِّ على هذا النقد العنيف: أشهر المتحدثين عن الإسلام وأبلغهم في الدفاع عن حماه، في ذلك الزمن: الأستاذ الإمام محمد عبده، الذي ردَّ على (هانوتو) بمقالات ثلاث، اتَّسمت بسَعَة العلم، وعمق الفكر، وقوة الحُجَّة، ونصاعة البيان، والجمع

بين الأصالة والتجديد، وقوة الاطلاع على الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية بمدارسها المختلفة. وقد كانت مقالات محمد عبده: حديث الناس، وشغلهم في ذلك الوقت.

تكلم (هانوتو) في مقاله عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية، وتحقُّق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر. وقال: (إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت صدر الإسلام وكبده (!) فالإسلام يحيط بها في إفريقيا، ويمتدُّ في آسيا إلى الصين، وهو قائم بأوربا في الأستانة **حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض.**

ثم قال: إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتَّجهون إلى الكعبة وتجمعهم رابطة واحدة، وأنهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلُّهم. فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث حلُّوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن. وقال: إن المتعصِّبين من المسلمين مثل (السنوسي)، تقوم عقيدتهم على كفاح غير المؤمنين، وعلى كراهية المدنيَّة الحاضرة. وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعَلاقة ما مع الدولة العليَّة بسبب ما بينها وبين المسيحية من عَلاقات. وانتهى من هذا العرض إلى قوله: توجد بالأستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومُرَّاكش عصابة خفية، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب. ويُخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف.

ثم دخل هانوتو في موازنة بين الدينين، فقال: إن المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقَدَر، والمغفرة، والحساب. وقال: إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثَّل في اتجاهين: اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو، ويجعل الإنسان في حضيض الضْعف ودَرْك الوهن. واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان، ويخوِّله حقَّ القربى من الذات الإلهية، بما فطر عليه من إيمان وإرادة، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات.

ثم قال هانوتو: إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شؤون نفسه، وبثُّ القنوط في قلبه، وتثبيط همته. أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني، فهو يؤدِّي إلى الجلاد والعمل.

ومثَّل للاتجاه الأول بالديانة البوذية، كما مثَّل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية. ثم قال: إن المسيحية هي الوارثة لآثار الآريين، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب الساميَّة، وإن كانت مشتقَّة منها. أما الإسلام فهو متأثِّر بالمذهب السامي، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإله عنه في علاء لا نهاية له. وأصول الثالوث السري مشتقَّة من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري، ويحمل المسيحي على إتيان الأعمال التي تقرِّبه من الله. أما الإسلام فهو يتمسَّك بالوحدانية، ويرفض ذلك، فيجعل المسلم كمَن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحوَّل، ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات. فلفظ (الإسلام) معناه: الاستسلام لإرادة الله.

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسين الفرنسيين في تصوُّر العلائق التي تربطهم بالمسلمين. فالمسيو (كيمُون) يعتقد أن الإسلام جُذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا. بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء. وهو يرى المسلمين وحوشا ضارية. ويعتقد أن الواجب إبادة خُمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقَّة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح (محمد) في متحف اللوفر. والمسيو لوازون (القس ياسنت سابقا)، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحي مُحسَّنا ومُحوَّرا. فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدءاً، وأسمى كعبا من المسيحية. وهناك فريق ثالث يتوسَّط بين الفريقين، ويقول: إن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية.

ثم قال هانوتو: إن هذه الآراء المتباينة هي التي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية. وطالب أن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام) [1] اهـ.

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين جـ٢ صـ٣٤٧ وما بعدها، طبعة دار النهضة العربية الثالثة، وانظر أيضا: الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ٣٠ – ٣٤ طبعة دار الفكر. بيروت، وتاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ صـ٤٠١ – ٤٢٤.

وقد ردَّ الشيخ الإمام محمد عبده - كما ذكرنا - على هذه الدعاوى الظالمة والزائفة، بمنطق علمي موضوعي تاريخي سليم كلِّ السلامة، لا يستطيع أحد أن يعترض عليه، ولا أن يجد فيه شائبة لتحامل أو تعصُّب، أو اتجاه عاطفي. ولا يتَّسع المجال هنا، لأورد هذا الردَّ النبيل، وأُحيل القارئ ليقرأه في موضعه، في تاريخ الأستاذ الإمام، كما أنه نشر منفردا، وكذلك نقل منه وعقَّب عليه أستاذنا الدكتور محمد البهي في كتابه القيم: (الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي). وقد عقَّب على الجانب الفكري من مقالة (هانوتو). أما ما نقله (كيمون) واتهاماته الفاجرة للإسلام، وافتراءته على المسلمين، واقتراحه تدمير الكعبة، ووضع قبر محمد في متحف اللوفر، فهي لا تستحقُّ أن يقف عليها عالم أو مفكر.

ولكنا سننقل عن الإستاذ الإمام في مقام آخر: ردَّه في قضية مشابهة اتُّهم فيها الإسلام بأنه يضادُّ العلم والفلسفة، ولا يتَّسع لهما، كما تتَّسع النصرانية. وذلك في ردِّه على فرح أنطون، ومجلة (الجامعة).

نسينا الماضي وفتحنا صفحة جديدة:

ومع هذه المرارات التي تجـرَّعناها مع الكاثوليك: رأى الكثيرون من المسلمين - وخصوصا من علمائهم ومفكريهم ودعاتهم - أن يفتحوا صفحة جديدة مع الكاثوليك خاصة، ومع النصارى عامة، وعُقدت من حوالي أربعين سنة ندوات وحلقات

ومؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي، رحَّبنا به وفتحنا له صدورنا.

ولم يكن ذلك منا موقفا بعيدا عن الدين، أو خارجا على تعاليمه، مداهنة في ديننا، أو مجاملة لغيرنا. بل هو نصٌّ ما أمر به ديننا في منهج الدعوة إلى الإسلام، وهو الذي بيَّنته الآية الكريمة بكلماتها البليغة الموجزة من سورة النحل: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[النحل: ١٢٥].

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تكون – عادة – مع الموافقين. والجدال – (أو الحوار) – بالتي هي أحسن، تكون – عادة – مع المخالفين.

وقد ذهب وفد من رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، على رأسه الأمين العام للرابطة الشيخ محمد علي الحركان، للقاء الكرادلة والأساقفة في الفاتيكان، وكان في وفد الرابطة عالمان معروفان، هما: الدكتور معروف الدواليبي، والدكتور محمد المبارك، وغيرهما.

وصدرت الحوارات والموضوعات التي تناولها المتحاورون في كتاب.

وصارت حوارات في ليبيا، وحوارات في مصر، وحوارات في غيرهما من البلدان العربية والإسلامية والأوربية.

وشاركتُ في حوار مع أحبار الكنيسة فيما سُمِّي القمة الإسلامية المسيحية الأولى في روما في أكتوبر ٢٠٠١م، وفي القمة الثانية في برشلونة ٢٠٠٣م.

وقلنا: يجب أن ننسى سواد الماضي وظلامه وظلمه، ونعيش على حاضر جديد، ونتطلَّع إلى مستقبل أفضل، يسود فيه التفاهم، والتسامح، بل التعاون بين الأديان الكتابية بعضها وبعض.

ولكن العالم المسيحي للأسف، لا تزال تسري في جنباته بقايا الرُّوح الصليبية القديمة، وإن ظهرت في ثوب جديد، وبأسلوب جديد، اشتركت في ذلك المسيحية الغربية بكل أطيافها ومذاهبها.

تجلَّى ذلك فيما سُمِّي (الحرب على الإرهاب) وهو في الحقيقة: الحرب على الإسلام، وعلى أمة الإسلام.

وتجلَّى ذلك في التضييق على العمل الخيري في كل مكان، وعلى الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم، وعلى مسلمي أوربا وأمريكا، وأبرز مثل لذلك: قضية الحجاب في فرنسا.

وتجلَّى ذلك أيضا في الرسوم الدانماركية الكاريكاتورية المسيئة إلى رسول الإسلام، والبالغة في الإساءة والإسفاف حدًّا لا يمكن السكوت عليه.

ثم فوجئنا أخيرا بهذا الهجوم من أكبر شخصية مسيحية

في العالم: بابا الفاتيكان، فهل هذه يا ترى عودة إلى الوراء؟ هل هي حرب صليبية جديدة، كما قالها بوش يوما، وإن اعتذر المعتذرون عنه بأنها سبق لسان؟

دوافع البابا إلى التطاول على الإسلام:

وقد تساءل الكثيرون عن (الدوافع) الحقيقية وراء هذا الهجوم البابوي على نبي الإسلام، وعلى عقيدته، وشريعته، وحضارته، وأمته؟

وتعدَّدت الآراء في التفسير والتعليل، واختلفت في البرهنة والتدليل، لأن النوايا الحقيقية تكنُّها القلوب، والله وحده هو الذي يعلم ما تُخفي الصدور، والبشر لهم الظواهر، والله يتولَّى السرائر.

وقد لخَّص الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم المستشار في وزارة شؤون الرئاسة في (أبو ظبي)، ورئيس مجلس أمناء (دار زايد للثقافة الإسلامية)، مقالات المتكلمين والمحللين لدوافع البابا تلخيصا حسنا، في دراسته الشاملة عن مقالة البابا، أو قُل عن محاضرته، وأنا أنقله عنه هنا:

(أما عن الدوافع: فقد قامت نظريات لا يمكن القطع بصحة أيٍّ منها، فالله وحده هو المطَّلع على النوايا. ومع ذلك فإن كلا منها يُلقي ظلالا على الموقف وآثاره.

فهناك مَن يقول بأن البابا يريد أن يغطِّي على ماضيه مع الحركة النازية المعادية للصهيونية، أو كما يقال – المعادية للسامية –

فقد كان البابا ضمن الشبيبة الهتلرية في صباه، ثم خدم في سلاح المشاة بالجيش النازي ووقع في الأسر. وهذا الانخراط في النازية لا يمكن أن تنساه إسرائيل وحُماتها، وسوف تُبرز هذه الورقة عند اللزوم إذا كان ذلك في مصلحتها، ولكنها يمكن أن تتناساه إذا خاصم الرجل الدين المُواجه للصهيونية وأتباعه، وهو ما يمكن القول بأن المحاضرة قد قامت به.

وهناك مَن يقول بأن المذهب الكاثوليكي في الولايات المتحدة يعاني من مشكلات أثَّرت على سُمعته لدى المجتمع الأمريكي، فجاءت هذه المحاضرة لتُجامل السياسة الأمريكية وتعاضدها في حربها المسمَّاة أحيانا بالحرب على الإرهاب، وأحيانا أخرى معاداة الفاشية الإسلامية. فها هو الحبر الأعظم يقول ما تقوله السياسة من موقعه كأكاديمي لاهوتي قديم، ورأس للكنيسة الكاثوليكية، ورئيس لدولة الفاتيكان، ويتوقَّع في مقابل ذلك ترميم سُمعة الكنيسة في تلك الديار.

وهناك مَن يقول بأن البابا لا يريد للوجود الإسلامي في أوربا أن يتَّسع ويتثبَّت، وقد عبَّر عن ذلك صراحة في معارضته العلنية، حينما كان (الكاردينال جوزيف راتزِنجر) لانضمام تركيا المسلمة إلى الاتحاد الأوربي باعتبار أنها تنتمي لحضارة غيَّر متجانسة مع الغرب المسيحي.

وأخيرا هناك مَن يقول بأن البابا ينتمي إلى الفريق الكنسي الذي لا يؤيِّد الحوار الجاد مع الأديان، لأن فيها تعطيلا وتنكُّرا لرسالة التبشير المسيحية (انظر: جون ستوت في كتابه

(Christian Mission in The Modern World). ويستشهد هؤلاء على هذه الدعوى بأن البابا بدأ فترة بابويته بنقل الكردينال البريطاني فيتز جيرالد من موقعه في الفاتيكان إِلىٰ الخارج، وهو من أعلام الحوار في روما.

وإذا لم نكن قد أكّدنا أيًّا من هذه الدعاوى عن الدوافع، فإننا لا نتصوَّر أن الناس سوف يُسقطونها من حسابهم)[1].

وقد سمعتُ من عدد من الأوربيين المسلمين يؤكِّدون: أن دافع البابا هو خوفه مما يرى من انتشار الإسلام في العالم بصفة عامة، وفي أوربا بصفة خاصة، فكان هجومه الحاد والمفاجئ نوعا من الدفاع الخفي أمام ظاهرة انتشار الإسلام السلمي.

نظرة في قصة الإمبراطور البيزنطي:

والحقيقة: أن الباحث المدقِّق في هذه القصة (قصة الإمبراطور البيزنطي ومحاوره) يجدها أقرب إلى التلفيق، منها إلى الحقيقة التاريخية.

فالوضع الذي كان فيه القيصر البيزنطي، وهو وضع المحاصَر المضيَّق عليه من الدولة المسلمة الفتية المنتصرة، دولة بني عثمان: لا يساعد على التفكير في الحوار والمجادلات الدينية. وبلده مهدَّد بالسقوط أمام القوة الزاحفة، وقد حدَّدوا الوقت بأنه سنة ١٣٩١م.

---

(١) محاضرة البابا بنديكيت السادس عشر وتوابعها: دراسة شاملة بقلم الدكتور عز الدين إبراهيم صـ١٥، ١٦، نشرتها جريدة الخليج بتاريخ: ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

والـمُحاور الذي ذكره الإمبراطور: شخصيته غير معروفة، بـل هـو مـجهـول الاسـم، ومـجهـول العـين، ومـجهـول الحـال، ولا يُدرَى: مَن الذي أرسله للحوار مع الإمبراطور؟ وهل تبعث دولة ما للجدال في أمر الدين مع إمبراطور، وصفوه بأنه عالم واسع الاطلاع: مجرد شخص (متعلم)؟ أم يبعثون له علاَّمة متضلِّعا في علوم الدين والكلام والجدل؟

ومن أي بلد قدم؟ من إيران، أي من بلاد الفرس؟ هل الفرس في ذلك الحين كانوا معنيين بجدال البيزنطيين، الذين يقاتلون خصومهم الأتراك؟

وأين موقع هذا المسلم - أيًّا كان قدره ومستواه - في هذا الجدال: ما أسئلته للقيصر؟ وما ردوده عليه؟

بالطبع مصدرنا في هذا كله، هو ما كتبه الإمبراطور مانويل الثاني، فليس لنا لهذه القصة كلِّها مصدر سواه.

ولو كانت قد حصلت بالفعل، ولم يكن افتراضا من الإمبراطور، وهو أسلوب أدبي متَّبع لدى بعض الكُتَّاب، كأن يقول سألني سائل عن كذا، فقلت كذا. أو قال التلميذ الفتى لشيخه المربي، ونحو ذلك ... فإن القيصر لم يكتب هذه المحاورة حال وقوعها أو بعده بقليل، بل يبدو أنه كتبها بعد سنوات، وكتبها كما يريد هو، وأجرى الحوار كما يريد أن يجري.

وسنناقش في الصحائف القادمة بالتفصيل: ما جاء في كلمة البابا على لسان القيصر، مما يتعلَّق بالإسلام ونبيه وعقيدته وشريعته وحضارته وأمته على افتراض وقوع هذه المحاورة.

البابا وتفسير القرآن:

أقحم البابا نفسه فيما لا يُحسنه من علوم القرآن وتفسيره، واجترأ على أن يقول فيه بغير علم، وهو ما لا يليق بمثله، وحوله الخبراء والمستشارون، وما أسهل أن يرجعوا إلى كتاب من كتب التفسير المعتمدة عند المسلمين، فيعرفوا منها المعنى المقبول أو الراجح.

ولكن البابا لم يفعل ذلك، وتعرَّض للكلام في آية [البقرة:٢٥٦]: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.

قال البابا: إن القيصر كان يعلم بيقين: أن الآية (٢٥٦) من سورة البقرة تقضي بأن: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وهي آية من السور الأولى، التي نزلت لما كان محمد ـ كما قال لنا العارفون ـ لا يزال عديم القوة، وواقعا تحت التهديد.

لكن القيصر كان يعلم كذلك: أن آيات أخرى من القرآن نزلت بعد ذلك تتضمَّن تحديدات وتدقيقات أخرى حول الحرب المقدَّسة (يعني الجهاد).

فالبابا يزعم حسبما قال له العارفون: أن آية: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ كانت من أوائل ما نزل من القرآن، عندما كان محمد ضعيفا عديم القوة، يعيش تحت سلطان مشركي قريش الذين يسودون مكة، ويتحكَّمون في مصيرها.

وهنا يبدو البابا ومن حوله من العارفين الذين يعتمد عليهم: غاية في الضحالة والجهل بالأوليات اللازمة لمعرفة القرآن

وعلومه وتفسيره. فمن المعروف: أن هناك قرآنا مكيًّا (نزل في مكة قبل الهجرة)، وقرآنا مدنيًّا (نزل في المدينة بعد الهجرة). وأن سورة البقرة من السور المدنية بالإجماع، وموضوعاتها تدلُّ على ذلك. فكيف تستثنى منها آية واحدة، لتنزل في السور الأولى، أي في أوائل العهد المكي؟! هذا أمر غير مفهوم قط.

ولو رجع البابا والعارفون الذين فسَّروا له الآية، إلى أي كتاب من كتب تفسير القرآن، لعلم أن هذه الآية لم تنزل إلا بعد عدَّة سنوات من الهجرة، أي بعد غزوة بدر، وجلاء بني قينقاع من اليهود، ووقوع غزوة أحد، وجلاء بني النضير، وكان من أبناء الأنصار مَن دخل في اليهودية بنذر أمه: إذا عاش ولدها: أن تُهوِّده! فلما وقع الجلاء من المدينة لبني النضير، قال آباؤهم: أبناؤنا، كيف نَدَعهم يرحلون معهم؟ وأرادوا أن يُكرهوهم على ترك اليهودية، والبقاء مع أهليهم وعشيرتهم وقومهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾.

وأما ما زعمه البابا من الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك حول (الحرب المقدسة) أو الجهاد، والتي يرى الإمبراطور البيزنطي - والبابا تبعا له - أنها تحمل في طياتها (العنف) مع الآخر، وتدعو إلى نشر الدين بحدِّ السيف! فسنردُّ عليها في موضعها، ردًّا يُخرس كل معاند، ويُسكت كل مجادل بالباطل.

هذا وقد اعترف البابا أخيرا في تعليقاته على نصِّ المحاضرة: أن ما نقله عن العارفين في آية: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ لم يكن صحيحا أو دقيقا.

(١)

هل أتى الإسلام بجديد غير ما في اليهودية والمسيحية؟

ذكر البابا في محاضرته أن الإمبراطور البيزنطي سأل محاوره العالم (أو المتعلم) المسلم: (أخبرني: ما الجديد الذي جاء به محمد غير الأشياء الشرِّيرة وغير الإنسانية، مثل أمره بنشر دينه - الذي يدعو إليه - بحدِّ السيف؟).

ولم يخبرنا البابا في كلمته: ماذا أجاب به هذا العالم (أو المتعلم) الفارسي المسلم؟ فلا شك أنه ردَّ على محاوره، وإلا كان حوارا من جانب واحد!

وقد سكت البابا نفسه عن هذا التساؤل، والسكوت في هذه الحال تسليم وإقرار ومُوافقة على ما تضمنه السؤال القبيح.

يؤكِّد هذا: أن البابا قد اقتبس هذا الكلام على لسان القيصر البيزنطي - وهو مسيحي أرثوذكسي، مخالف لدين البابا، بل هو في نظره كافر - ليستشهد به على الفكرة المخبوءة في رأسه، وهي: أن الجهاد في الإسلام - أو الحرب المقدسة كما يقول - يحمل معنى العنف في التعامل مع الآخرين. وهو ما تخالف فيه النصرانية الإسلام، فهي ترفض العنف بإطلاق، ولا ترى أن تُقابل

السيئة بمثلها، ولا توافق مَن يقول: (الشر بالشر يُحسم، والبادئ أظلم!) بل يقول إنجيلها: (مَن ضربك على خدك الأيمن فأَدرْ له خدك الأيسر، ومَن سخَّرك لتسير معه ميلا فسرْ معه ميلين)[1]!

أما الإسلام، فقد قال لأتباعه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦]، ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ [البقرة:١٩٠]، ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ**﴾ [البقرة:١٩٣]، ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾[التوبة:٣٦].

وإذا لم يردَّ البابا على سؤال القيصر، فنحن نتطوَّع بالردِّ عليه، ونقول له: يا سيادة القيصر أو الإمبراطور، أحسب أنه لا يخفى عليك ماجاء به الإسلام من جديد، في كل المجالات التي اشتملت عليها الرسالة الإسلامية العامة الخالدة الشاملة.

١- في مجال العقائد:

جاء بالجديد في مجال العقيدة في كلِّ أقسامها ونواحيها:

في مجال الألوهية: جاء بالتوحيد الخالص، فلا يُشارك اللهَ أحدٌ في ربوبيته ولا في أُلوهيته، كما جاء بالتنزيه المحض، فلا يُشبِّه الله بأحد من خلقه، كما فعلت اليهودية، ولا يُشبَّه المخلوق بالخالق، كما فعلت النصرانية. وحسبك سورة

(١) انظر: إنجيل متَّى الفقرات (٣٨ - ٤٣)، وإنجيل لوقا (٦/ ٢٩، ٣٠).

الإخلاص: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ .

وفي مجال النبوات: جاء بمبدأ عِصمة الأنبياء من الذنوب، ولا سيما الكبائر، التي تنسبها إليهم أسفار التوراة، فهذا يسكر، وهذا يزني، وهذا يطمع في امرأة جاره، ويحتال عليه حتى يقتل في المعركة، ويحظى بزوجته من بعده!!

وفي مجال الغيبيات والآخرة: جاء بمبدأ العدل الإلهي، الذي لا يخاف عنده أحد ظلما ولا هضما، والذي لا يظلم أحدا مثقال ذرة: ﴿ **وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وبهذا أبطل الشفاعة الشِّركية التي اعتمد عليها الوثنيون في أن أصنامهم أو آلهتهم المزعومة تَشفع لهم عند الله، ولا يملك الله أن يردَّ شفاعتها، وقد انتقلت فكرة الشفاعة هذه إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين زعموا أنهم تشفع لهم أحبارهم ورُهبانهم. فأبطل الله هذه الشفاعة الشركية بصفة مُطلقة، وأثبت شفاعة أخرى، ولكنه قيَّدها بقيدين:

الأول: أنه لا يشفع أحد إلا بإذن الله: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى** ﴾ [النجم:٢٦] .

والثاني: أن لا شفاعة لغير أهل التوحيد، فأما المشركون فلا شفاعة لهم، قال تعالى في شأن الملائكة: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ [الأنبياء:٢٨]، ولا يرتضي الله أهل الشرك أبدا، وقال عن المشركين: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ [المدثر:٤٨]، وقال عنهم: ﴿**ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع**﴾[غافر:١٨].

٢ - في مجال العبادات والشعائر:

وجاء بالجديد في مجال العبادات: في الصلاة والزكاة والصيام والحج.

الصلاة:

أما الصلاة: فهي في الإسلام فريضة عظيمة، وهي عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه بعد الشهادتين. الإسلام وحده هو الدين الذي يجعل المسلم على موعد مع ربه خمس مرات في كل يوم، لا يوجد دين يربط الإنسان بربه هذا الربط، يجعله ينتشل نفسه من لُجَّة الحياة إذا غرق في أعمالها ومشاغلها، ليقف بين يدي مولاه.

عندما تزول الشمس عن كَبد السماء، بعد الزوال يناديه المنادي: الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح، فبنتزع نفسه من الدنيا، ويأتي ليؤدِّي صلاة الظهر، وبعد أن يصير ظلُّ كلِّ شيء مثله، يؤدِّي صلاة العصر، وبعد أن يغرب قرص

الشمس يؤدِّي صلاة المغرب، وبعد أن يغيب الشفق الأحمر يؤدِّي صلاة العشاء، وبعد أن ينبلج الفجر يؤدِّي صلاة الفجر، "خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد في اليوم والليلة" (١).

كما جاء بنوافل تطوُّعية كثيرة لا تُعرف في أديان أخرى، مثل: صلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الكُسوف والخُسوف، وغيرها من الصلوات التي تُؤدَّى في جماعة.

هذا غير السنن الرواتب، وغيرها من النوافل التى فتح الله بابها، لـمَن يحب الاستزادة من الخير، "ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه" (٢).

كما فتح الباب لصلوات فردية، مثل: صلاة الضحى، وقيام الليل.

ومن أعظم الصلوات الجماعية التي جاء بها: صلاة التراويح في رمضان من كل عام، وهي صلاة طويلة يحرص المسلمون عليها، ويتقرَّبون إلى الله بآدائها، وخصوصا في الحرمين الشريفين.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢٦٩٣)، وقال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير المذحجي، وأبو داود (١٤٢٠)، والنسائي (٤٦١)، وابن ماجه (١٤٠١)، ثلاثتهم في الصلاة، عن عبادة بن الصامت، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٥٨).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

كما جاء بصلاة الجمعة الأُسبوعية، التي يجتمع فيها الناس في المساجد، ويسمعون الموعظة.

الصلاة في الإسلام ليست كالصلاة عند المسيحيين أو اليهود، الصلاة عند المسيحيين دعاء وابتهال، أما الصلاة في الإسلام فقيام وقعود، ركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح وتكبير وتهليل وتشهُّد، يعمل فيها اللسان ذاكراً مسبِّحا، ويعمل فيها الجسم متحرِّكا قائمًا قاعداً، ويعمل فيها القلب مخلصا خاشعًا، يعمل فيها العقل متدبِّرا متأمِّلاً.

هذه الصلاة التي جمعت كل أنواع التعظيم لله عز وجل، ولها شروط ليست عند أي دين من الأديان: أن لا تقوم للصلاة إلا متطهِّراً: طاهر الثوب، طاهر البدن، طاهر المكان، طاهراً من الحَدَث الأكبر إذا أصابتك جنابة، ومن الحَدَث الأصغر إذا انتقض وضوؤك، تقوم متطهِّراً متوضِّأ تقف بين يدي الله، آخذا زينتك، ساترا عورتك، متجرِّدا بقلبك لله، مستقبلا الكعبة، مراعيا الوقت، حتى لا تكون من ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون: ٥].

● **الزكاة:**

وأما الزكاة: فقد تميَّزت عن الصدقات في الأديان الأخرى بجُملة مزايا:

أولاً: إن الزكاة الإسلامية لم تكن مُجرَّد عمل طيِّب من أعمال البر، بل هي رُكن أساسي من أركان الإسلام، يُوصم

بالفسق مَن منعها، ويُحكم بالكفر على مَن أنكر وجوبها، فليست إحسانًا اختياريًّا، وإنما هي فريضة تتمتَّع بأعلى درجات الإلزام الخُلُقي والشرعي.

ثانيًا: إنها في نظر الإسلام حقٌّ للفقراء في أموال الأغنياء، وهو حقٌّ قرَّره مالك المال الحقيقي وهو الله تعالى، فليس فيها معنى من معنى التفضُّل والامتنان من الغنى على الفقير.

ثالثًا: إنها ﴿**حَقٌّ مَعْلُومٌ**﴾ قدَّر الشرع الإسلامي نُصبه ومقاديره وحدوده وشروطه، ووقت أدائه وطريقة أدائه.

رابعًا: هذا الحقُّ لم يُوكل لضمائر الأفراد وحدها، وإنما حُمِّلت الدولة المسلمة مسئولية جبايتها بالعدل وتوزيعها بالحقِّ. فهي ضريبة تُؤخذ وليست تبرُّعًا يُمنح.

خامسًا: إن من حقِّ الدولة أن تؤدِّب – بما تراه من العقوبات المناسبة – كل مَن يمتنع من أداء هذه الفريضة.

سادسًا: إن أي فئة ذات شوكة تتمرَّد على أداء هذه الفريضة. فإن من حقِّ إمام المسلمين – بل من واجبه – أن يُقاتلهم ويُعلن عليهم الحرب حتى يؤدُّوا حقَّ الله وحقَّ الفقراء في أموالهم.

سابعًا: إن الفرد المسلم مطالَب بأداء هذه الفريضة العظيمة وإقامة هذا الركن الأساسي في الإسلام، وإن فرَّطت الدولة في المُطالبة بها، أو تقاعس المجتمع عن رعايتها. وعليه – ديانة – أن

يعرف من أحكام الزكاة ما يُمكِّنه من أدائها على الوجه المشروع المطلوب.

ثامنًا: إن حصيلة الزكاة لم تُترك لأهواء الحكام، ولا لتسلُّط رجال الكهنوت - كما كان الحال في اليهودية - ولا لمطامع الطامعين من غير المُستحقِّين، تُنفقها كيف تشاء، بل حدَّد الإسلام مصارفها ومُستحقيها، فقد عرَف البشر من تجاربهم أن المهم ليس هو جباية المال، إنما المهم هو أين يُصرف؟

تاسعًا: إن هذه الزكاة لم تكن مُجرَّد معونة وقتية، بل كان هدفها القضاء على الفقر، وإغناء الفقراء إغناءً دائمًا، لأنها فريضة دوريَّة مُنتظمة دائمة الموارد.

عاشرًا: إن الزكاة - بالنظر إلى مصارفها التي حدَّدها القرآن وفصَّلتها السُّنة - قد عملت لتحقيق عدَّة أهداف رُوحية وأخلاقية واجتماعية وسياسية. فهي أوسع مدى، وأبعد أهدافًا من الزكاة في الأديان الأخرى [١].

● الصيام:

وأما الصيام: فقد جاء الإسلام بالجديد الذي يجعل صيام المسلمين مُتميِّزا عن الصيام المعروف عند النصارى، فالصيام الإسلامي حرمان كامل من كلِّ ما يُشبع شهوتي البطن والفرج،

---

(١) انظر: كتابنا: (فقه الزكاة) الباب الأول تحت عنوان (فروق أساسية بين الزكاة في الإسلام والزكاة في الأديان الأخرى) جـ١ صـ٨٥ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، ومكتبة وهبة القاهرة.

ولو من حلال، طلبا لمرضاة الله تعالى. كما قال الله تعالى في الحديث القدسي عن الصيام: "يَدَع طعامه من أجلي، ويَدَع شرابه من أجلي، ويَدَع زوجته من أجلي، ويَدَع لذَّته من أجلي، فالصيام لي وأنا أجزي به"(١).

الصيام في النصرانية عن كل ذي روح، ولكنه يأكل من الأغذية النباتية، ما يُشبع بطنه، ويُلبِّي شهوته.

ولا يعرف صيام النصارى الصيام عن الشهوة الجنسية، فلا يحلُّ للمسلم الصائم أن يُجامع امرأته إلا في الليل.

وهذا الصيام مفروض في كلِّ سنة لمدَّة شهر كامل، وهو شهر مُعيَّن معروف، هو شهر رمضان، الذي يدور في الفصول الأربعة كلها، ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ [البقرة:١٨٥]، وفرضية الصيام ثابتة بالقرآن المؤكَّد بالسُّنة والإجماع، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ [البقرة:١٨٣]، ولا يوجد نصٌّ في التوراة ولا في الأناجيل يُفيد فرضية الصيام على اليهود والنصارى.

ولهذا الصيام أحكام أجملها القرآن، وفصَّلتها السنة، وقنَّنها الفقه، تقوم على اليسر ورفع الحرج، ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥](٢).

---

(١) رواه ابن خزيمة في الصيام (٣/١٩٧)، وقال الأعظمي: صحيح، عن أبي هريرة، وأصل الحديث في الصحيحين.

(٢) انظر: كتابنا (تيسير فقه الصيام) نشر مكتبة وهبة، ومؤسسة الرسالة.

وينتهي صيام رمضان بصدقة مفروضة على كل مسلم يقدر على أدائها، وهي صدقة الفطر، التي فرضها رسول الإسلام، إسعافا للفقراء والمساكين في يوم العيد[1] ، يطوف المُوسرون عليهم ليُعطوها لهم، ولا يُكلفوهم بأن يطوفوا هم عليهم، بل يُغنونهم عن السؤال في هذا اليوم[2] ، الذي يجب أن يشترك فيه الجميع في مسرَّة العيد .

وبهذا ارتبط عيد الفطر بفريضة الصيام، ويبدأ بصلاة مخصوصة هي صلاة العيد، يجتمع فيها أهل البلد أو القرية أو الحيّ في صعيد واحد، في صورة مهرجان إسلامي، يُهلِّلون ويُكبرون، يبدأون يومهم بطاعة الله سبحانه وعبادته .

---

(١) إشارة إلى حديث : "فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر، طهرة للصائم من اللغو والرفث . . ." . رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، كلاهما في الزكاة، والدارقطني في السنن كتاب زكاة الفطر (٢ / ١٣٨)، وقال عن رواته : ليس فيهم مجروح، والحاكم في الزكاة (١ / ٥٦٨)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح أبو داود (١٤٢٠) .

(٢) إشارة إلى حديث : "أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم" . رواه الدارقطني في السنن (٢ / ١٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٤ / ١٧٥)، كلاهما في زكاة الفطر، عن ابن عمر، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٣ / ٣٣٤) .

● الحـــج :

وفي عبـادة الحج، وهي الرُكن الخامس من أركـان الإسـلام، تتميَّز هذه العبادة عن مثيلاتها في الأديان الأخرى .

فهي أولا : فريضة ورُكن يُؤدِّيه كل مَن استطاع إليه سبيلا، في العمر مرة، وبعدها يكون تطوُّعا منه .

وهي ثانيا : عبادة بدنية ومالية، فإذا كانت الصلاة عبادة بدنية، وكذلك الصيام، والزكاة عبادة مالية، فإن الحجَّ جمع بين الأمرين، فهو عبادة بدنية ومالية، يتعب المسلم فيه بدنه، ويُعاني المشقَّات في سفره، وفي أداء مناسكه، وفي إقامته في مِنَى وعرفات ومزدلفة وغيرها . وفي الطواف والسعي، ومع ذلك عليه أن يبذل ماله، في نفقات السفر إلى مكة، والإقامة فيها حتى يعود .

وهي ثالثا : تعتمد على الحركة الجماعية للحجيج، لأن مناسك الحجِّ موقوتة بأيام مُحدَّدة، فالتحرُّك إلى مِنى في يوم التروية (الثامن من ذي الحجة)، والوقوف بعرفة يوم التاسع، والنفير من عرفة إلى مزدلِفة بعد غروب يوم التاسع، أي ليلة العاشر، ورمي جمرة العقبة وطواف الإفاضة يوم العاشر، ورمي الجمرات يومي الحادي عشر والثاني عشر لمَن تعجَّل .

وكل هذه الأعمال تُؤدَّى في تحرَّك جماعي، يُعتبر عند المسلمين ضربا من العبادة لله، وسببا في التقرُّب إليه . ويعتبر الحجُّ تدريبا للمسلم على السلم، فلا يقتل صيدا، ولا يقطع شجرا .

وتدريبا على المساواة، فالناس جميعا يلبسون ثيابا بيضا بسيطة متواضعة لا تفرِّق فيها بين غني وفقير ولا بين سوقة وأمير.

ويُعتبر الحج إذا كانت نفقته من حلال، وأُدِّي بإتقان وإخلاص: ميلادا جديدا للمسلم، يرجع معه إلى بلده إنسانا آخر، كما صح في الحديث: "مَن حج ولم يرفث ولم يفسق: رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه" (١).

وفي يوم العاشر من ذي الحجة: يقع عيد الأضحى، وهو العيد الثاني للمسلمين، وهو مُرتبط بعبادة الحجِّ، ولذا يسمَّى يوم العاشر: يوم الحجِّ الأكبر.

هذا الحجُّ بشعائره وأركانه وشروطه وآدابه: من الجديد الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وليس من الأشياء الشرِّيرة وغير الإنسانية التي زعمها الإمبراطور البيزنطي!

٣- الجديد في الأخلاق:

وجاء بالجديد في مجال الأخلاق، لقد جاء الإسلام بمجموعة من الفضائل الأخلاقية، أسَّسها على فلسفة ربانية عميقة، تتميَّز بجملة من الخصائص.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أبواب المحصر وجزاء الصيد (١٨١٩)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، وأحمد في المسند (٩٣١١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)، عن أبي هريرة.

أخلاق معلَّلة مفهومة:

لم تكن الأخلاق في الإسلام كما جاءت في اليهودية والنصرانية، تحكُّمية غير معلَّلة ولا مفهومة، (افعل كذا)، مجرَّدا من أيِّ تفسير أو تعليل، لكن القرآن إذا أمر أمرًا علَّله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، أطهر لهم، وأنمى لهم، وأرقى لهم.

يُعلِّل القرآن أوامره الأخلاقية، فهي أخلاق مفهومة، ليست أخلاقًا تحكُّمية.

● أخلاق وسطية متوازنة:

وهي أخلاق وسطية متوازنة، تجمع بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، بين الرُّوحية والمادية، بين الحقِّ وبين الواجب، ما للإنسان وما على الإنسان، فإذا كان الإنسان المثالى في المسيحية: هو الراهب الذي يتجرَّد عن الحياة، ويعتزل الدنيا، ويعتزل النساء، ولا يتزوج، ولا يعمل للحياة. فإن الإنسان المثالي في الإسلام هو الذي يجمع بين الحسنتين: الدنيا والآخرة،

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، في يوم الجمعة يسعى المسلم إلى ذكر الله ويَذَر البيع، يعني أنه كان في بيع قبل الصلاة، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، يمكن أن يعمل قبل الصلاة، ويعمل بعد الصلاة.

العمل في الإسلام عبادة والعمل في الإسلام جهاد، ولذلك الأخلاقية الإسلامية هي الأخلاقية الوسطية، ليس هناك إنسان يظلُّ يعبد الله دائمًا، يصوم النهار ويقوم الليل. وحينما شكا بعض الصحابة أنه يشعر بأنه نافق في حياته، لأنه يكون على حال عند رسول الله، وعلى حال آخر إذا ذهب إلى بيته، وداعب زوجته ولاعب أولاده، فقال له، وكان اسمه حنظلة: "يا حنظله، لو دمتم على الحال التي تكونون فيها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة" (١).

لا يطلب الإسلام من الإنسان المسلم أن يظلَّ عابداً باكيًا خائفا طول حياته، ولكن ساعة وساعة، هذا هو الإسلام.

جاء الإسلام بالتوازن الأخلاقي، فإذا كانت اليهودية قالت: السنُّ بالسنِّ، والعين بالعين، والأنف بالأنف. والمسيح قال: مَن ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر. فإن الإسلام لم يأمر بما أمر به المسيح أمرًا عاما، لأن هذا قد يصلح لمجموعة

---

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، وأحمد في المسند (١٧٦٠٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٩)، عن حنظلة الكاتب.

صغيرة منتقاة، لكن لا يصلح أمرًا عالميًّا وتوجيهًا عالميًّا لكل البشر، ولكنه رغَّب فيه، باعتباره فضلا وإحسانا، الإسلام جاء بالعدل، وجاء بالفضل: مرتبة العدل: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا** ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومرتبة الفضل: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ٤٠].

عليك أن تقوم بالعدل وهذا الواجب، ولك أن تقوم بالفضل والإحسان وتعفو: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٦]

أخلاق واقعية:

الأخلاق في الإسلام أخلاق وسطية، وأخلاق واقعية، تراعي حالة الإنسان لا تريد من الإنسان أن يكون ملاكًا مطهرًا، يمكن للإنسان أن يقع في الخطيئة، ولا عجب أن يقع الإنسان في الخطيئة، أبوه آدم أخطأ، ولكن الله فتح له باب التوبة: ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] إنّ الله تعالى ذكر الأمة المصطفاة فقال: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢] أيْ من الأمة مَن يظلم نفسه، ويقصِّر في بعض الواجبات، ويقع في بعض المحرمات، ولكن هذا لا يغلق باب التوبة عنه، فباب

الله مفتوح: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

٤ - الجديد في التشريع:

أما الجديد في التشريع فحدِّث ولا حرج.

فمن المعروف أن المسيحية ليس فيها تشريع، إلا ما جاءت به في شأن الطلاق، وتحريمه؛ إلا لعلَّة الزنى، وقد كفر المسيحيون بهذا التشريع، وأجازوا الطلاق لأتفه الأسباب، ولم يلتزموا بتعاليم دينهم في ذلك.

وأما ما جاءت به اليهودية من التشريعات فيغلب عليها (القومية الإسرائيلية)، فهو ليس تشريعا إنسانيا عالميا، بل هو تشريع لشعب معيَّن.

وهذا بخلاف التشريع الإسلامي، الذي جاء تشريعا عالميا إنسانيا، فقد أعلن القرآن الكريم منذ العهد المكي أنه جاء: ﴿ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، كما أنه: ﴿ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم:٥٢]، وقال الله للرسول محمد: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف:١٥٨].

ولهذا دخل الإسلام بلاد الحضارات: فارس والروم والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والهند، وحكم هذه البلاد، فما ضاق تشريعه يوما بواقعة، بل عالج كلَّ المشكلات برُوح سمحة، وعقل مرن، في ضوء أصول دينه، ومقاصد شريعته، فكان من وراء ذلك: الخير والعدل والأمن والاستقرار.

لقد كانت الأصول النظرية التي جاء بها التشريع وافية بكلّ ما يحتاج إليه البشر، في مجال الفرد وحاجاته، ومجال الأسرة ومطالبها، ومجال المجتمع ومقوماته، ومجال الأمة ورسالتها، ومجال العلاقات الإنسانية في السلم والحرب.

وكانت هذه الأصول تتميَّز بخصائص لا تتوافر لغيرها: غايتها الربانية، ونزعتها الإنسانية، ووِجهتها الأخلاقية، وعلاجاتها الواقعية، ورؤيتها العالمية، ومراعاتها للمصالح البشرية المتنوِّعة، ومرونتها في مواجهة المشكلات، بما يلائم الزمان والمكان والعُرف والحال، ويراعي لكلِّ حالة ظروفها، ويعطيها حقَّها وحكمها، مع الحرص على الموازنة بين النصوص الجزئية في الواقعة، والمقاصد الكلية للشريعة، ورعاية القواعد الفقهية التي تحكم منطق الفقيه حين ينظر في النصوص، وحين تَرِد عليه الوقائع.

مثل قواعد: الأمور بمقاصدها. العادة مُحكَّمة. لا ضرر ولا ضرار. المشقَّة تجلب التيسير. الضرورات تبيح المحذورات. الحاجة تُنزَّل منزلة الضرورة. الضرر يُزال. الضرر لا يُزال بضرر مثله أو أكبر منه. يُتحمَّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام. يُتحمَّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى. يُرتكب أخفُّ الضررين. يُفوَّت أدنى المصلحتين.

ولقد خدمت هذا التشريع عقول كبيرة على مرِّ العصور، وتكوَّنت مدارس ومذاهب شتَّى في فقه هذا التشريع، تملك ثروة هائلة من (الفقه) المؤسَّس على (أصول) معروفة، والمستنِد إلى

أدلَّة من النقل والعقل، نوَّهت بقيمته المؤتمرات العالمية للقانون، التي انعقدت في أوربا في القرن الماضي، في لاهاي، وفي باريس.

وقُدِّمت مئات الرسائل للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه في الجامعات الإسلامية المتعدِّدة في أنحاء العالم، وفي الجامعات المدنية أيضا: في كليات الحقوق (القانون) والتجارة والإدارة والاقتصاد وغيرها، كلها تُجلِّي جانبا أو أكثر من جوانب هذا التشريع العظيم.

ولقد سبق هذا التشريع الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا: التشريعات المعاصرة في تبنِّي نظريات المساواة والحرية والعدل ومحاربة الظلم والفساد والطغيان. وكل النظريات التي يفخر بها القانون الحديث كان للمسلمين السبق فيها، وإن اختلفت المصطلحات أو الصياغات، مثل نظرية (التعسُّف في استعمال الحقِّ)، ونظرية (تحمُّل التبعة)، ونظرية (الظروف المخفِّفة)، وغيرها.

هل جاء محمد بأشياء شريرة ولا إنسانية؟

كان في كلمات القيصر البيزنطي الأرثوذكسي، الذي جعل البابا كلامه عمدة له فيما تحدَّث به عن الإسلام في محاضرته: أن محمدا لم يجئ بشيء جديد، إلا الأشياء الشريرة واللاإنسانية، مثل أمره بنشر دينه الذي جاء به بحدِّ السيف!

فليت شعري: ما الأشياء الشريرة التي جاء بها محمد؟ وهو أول من دعا إلى الخير، وفعل الخير، ونية الخير، والتعاون على

الخير، والدعوة إلى الخير، والإنفاق في سبيل الخير، والجهاد في سبيل الخير.

وهو أول من قاوم الشرَّ والفساد والجريمة والظلم والرذيلة والاحتكار والربا وكنز المال والسرف والترف، والاستبداد والطغيان، وقهر الضعفاء، وأكل حقِّ الفقراء، وأجر العمال، وحقوق المستضعفين، اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهو أول من دعا إلى برِّ الوالدين - ولو كانا مشركين - وصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، والإحسان إلى الجيران، وإكرام اليتيم، والأرملة، والحضِّ على طعام المسكين.

كما دعا إلى تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، ورعايته فطرته التي فطر الناس عليها، وعدم مصادرة غرائزه، بل التسامي بها وتهذيبها بحيث تقف عند المُثُل العليا، التي تسمَّى: حدود الله، وتهتدي بهدى الله، والمحافظة على كرامة الإنسان، وحرية الإنسان، الذي جعله الله في الأرض خليفة، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نِعَمه ظاهرة وباطنة، فلا يجوز أن يسوقه حاكم بالعصا كما تساق الحمير، ولا يجوز أن يُهضم حقُّه، أو يهمل أمره، أو تداس كرامته، أو تدنس حرماته. ويجب أن يحمى دينه ودمه وعرضه وماله، وأن يرعى حق الضعيف، حتى إنه أجاز القتال من أجل إنقاذ المستضعفين.

وإني لأسائل الإمبراطور ومَن وافق على كلامه: أين أمر محمد بنشر دينه بالسيف؟ هذا هو القرآن أمامنا كاملا غير

منقوص، لم تضع منه كلمة واحدة، يضمُّ أكثر من ستة آلاف آية، فأين من هذه الآيات ما يأمر بنشر الدين بالسيف؟

وجدنا الآيات التي ترفض أن يدخل الناس تحت بريق السيف، أو أي لون من ألوان الإكراه.

ليس في القرآن إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

وإذا لم نجد هذا في القرآن، فهل نجد هذا في السنة؟

لا والله، لن نجد هذا في السنة كما لم نجده في القرآن.

يقول القرآن الكريم في سورة النحل المكية: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول في سورة آل عمران المدنية: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فانظر إلى ختام الآية ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ** ﴾، أي أعرضوا عن الإيمان، ولم يقبلوه. ﴿ **فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾، لم يقل: فاضربوا رقابهم بحدِّ السيف، أو شنُّوا عليهم الغارة.

وليست هذه هي الآية الوحيدة التي تقول ذلك في شأن مَن

تولَّى عن الإسلام وأعرضوا عنه، بل هناك عشرات الآيات تقر مثل ذلك المعنى.

ففي نفس سورة آل عمران: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي سورة النور: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾ [النور: ٥٤].

وفي سورة التوبة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، وفيها الآيات التي يزعمون أنها (آيات السيف)[1]! نقرأ قوله تعالى في آخر السورة: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

---

(١) ناقشنا ما قيل حول هذه الآيات في كتابنا (فقه الجهاد) - تحت الطبع - وبيَّنا أنها كلها آيات في جهاد الذين يقاتلون المسلمين، ويفتنونهم في دينهم، وهي تقابل القوة بالقوة، والسيف بالسيف، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ [التوبة: ٣٦]

ربما قال بعضهم: هناك حديث يقول: "بُعثتُ بالسيف بين يدي الساعة" [1]. وأقول: هذا الحديث ليس فيه أمر بنشر الإسلام بالسيف، وإنما يقول: "بُعثتُ بالسيف"، وقد بيَّنا في كتابنا (فقه الجهاد) أن هذا الحديث مردود من حيث سنده، وقد ضعَّفه مخرجو الحديث في المسند، ومن حيث دلالته، وهو مخالف لنصٍّ القرآن الذي يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة:٣٣].

فهذا ما أُرسل به محمد: ﴿**بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ وهذا ما تكرَّر في القرآن[2].

فقل لي بربك: أين أمر محمد بنشر دينه بالسيف؟ إذا لم تجد ذلك في آية أو بعض آية من كتابه، ولا في حديث أو بعض حديث من سنته؟

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥١١٤)، عن ابن عمر وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه. ابن ثوبان اختلفوا فيه وخلاصة القول أنه: حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر عليه، فقد أشار أحمد إلى أن له أحاديث منكرة. قال مخرّجوه: وهذا منها، وانظر: تعليقنا على الحديث في فقه الجهاد.

(٢) وتكرر الآية بلفظها في سورة الصف [الآية:٩]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [الفتح:٢٨].

نعم هناك آيات - وكذلك أحاديث - تحضُّ على القتال في سبيل الله، ولكن هذه ليس فيها أية دلالة على أن المقصود بها نشر الدين بالسيف، بل دفع الفتنة في الدين، وتوفير الحرية للمؤمنين، وقتال مَن يقاتل المؤمنين، وتأديب الناكثين والظالمين، وإنقاذ المعذبين والمستضعفين، فهذا ما جاءت به آيات القرآن الحكيم، وأحاديث الرسول العظيم، وليس فيها نصٌّ واحد يأمر بنشر دين الله بالحديد والنار، والسيف البتار.

● الله والقوة:

وكلام البابا في محاضرته يُفهم: أن طبيعة (جوهر) الله - حسب تعبيره - تأبى الشدَّة والعنف مع خَلقه بصفة مطلقة، وأنه لا يتعامل مع الخَلق إلا بالمحبة والرحمة، ولا يحبُّ أن يرى الدم، وهذا ليس بمسلَّم على إطلاقه.

فكثيرا ما أنزل الله عقوبته ببعض الأقوام الذين كفروا به، وكذَّبوا رسله، وهذا واضح لمَن قرأ التوراة والأسفار الملحقة بها.

فالله تعالى هو الذي أرسل الطوفان ليُغرق قوم نوح، ويطهِّر الأرض من شرِّهم.

والله سبحانه هو الذي أهلك عادا بريح صرصر عاتية، حين كذَّبوا نبيَّه هودا، وجحدوا برسالته، واتَّبعو أمر كل جبار عنيد.

والله - جلَّ جلاله - هو الذي أهلك ثمود بالصيحة التي أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

والله – جلَّ شأنه – هو الذي أهلك فرعون وجنوده، وأغرقهم في اليمِّ أجمعين، وأنجى موسى ومن معه من المؤمنين.

إلى غير ذلك من العقوبات السماوية التي نزلت بالأمم من قبلنا، حين جحدوا بآيات ربهم وعصَوا رسله.

والإسلام يرى أن الأصل في الدماء هو التحريم، ولا يبيح سبحانه من إسالة الدماء إلا بقدر الضرورة، التي يستلزمها الحفاظ على حياة المجموع. ولهذا شرع القصاص من المعتدي من الأفراد، كما شرع الجهاد لردع المعتدي من الجماعات.

فقد شرع الله في التوراة: القصاص من المعتدي بمثل عدوانه: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والسنُّ بالسنِّ.

كما شرع القتال ضدَّ بعض الشعوب وأمر موسى إذا استولى عليها: أن يضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف.

أما الشعوب الأخرى القريبة، فعليه ألا يستبقي فيها نَسَمَة حية.

وسنذكر ذلك فيما بعد بالتفصيل. وسننقل عن التوراة وملحقاتها من إراقة الدماء وذبح الأبرياء: ما يشيب من هوله الولدان، وهو للأسف منسوب إلى الله تعالى، وإلى أنبيائه ورسله، الذين أرسلهم الله ليهدوا خلقه.

* * *

(٢)
الإيمان والعقل
بين النصرانية والإسلام

كانت عَلاقة الإيمان بالعقل، وعَلاقة العقل بالعنف: أهم ما شغل البابا في محاضرته في الجامعة الألمانية، التي كان يدرِّس فيها من قبل.

ويُعلِّق البابا بنديكت على ما نقله عن الإمبراطور البيزنطي الأرثوذكسي في محاوراته للمسلم الفارسي، فيقول:

(الجملة الحاسمة في تلك المحاورة ضدَّ الإكراه على الإيمان هي: (ألا يتصرَّف الإنسان وفقا للعقل هو أمر مخالف لطبيعة الرب). ويلاحظ المُحرِّر ثيودور خوري أنه بالنسبة للإمبراطور البيزنطي المُثقَّف بالفلسفة اليونانية هذه الجملة لا تحتاج إلى إثبات، لأنها دليل بنفسها. لكن بالنسبة للتعاليم الإسلامية: الله لا شأن له إطلاقا بالعقل (فوق العقل، يتجاوزه، لا يُقارن به). إرادته لا يحدُّها أي من معاييرنا بما في ذلك المعقولية. وينقل خوري هنا من عالم الإسلاميات الفرنسي أرنالدز: ما ينقله الأخير عن ابن حزم: من أن الله ليس مُلزما حتى بكلماته، وليس هناك

ما يُلزمه أن يُوحي بالحقيقة. لو كانت تلك إرادة الله: أن نعبد الأصنام، لفعلنا! (انتهى كلام ابن حزم بحسب النقل الفرنسي عنه).

● **وقفات تأملية مع ما نقله البابا:**

ولنا عدَّة وقفات مع هذه الفقرة، التي اعتمد فيها البابا على عالم اللاهوت الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري.

● **الوقفة الأولى مع البابا:**

الوقفة الأولى مع جملة: (ألا يتصرف الإنسان وفقا للعقل، هو أمر مخالف لطبيعة (جوهر) الرب) ما مدلول هذه الجملة؟ ما معنى (مخالف لطبيعة الرب)؟ لو قال: مخالف لإرادة الرب، أي لما يُحبُّه الرب ويرضاه من خَلقه، أو مُخالف لأمر الرب الذي بلَّغه الأنبياء عنه إلى عباده ... لو قال شيئا من ذلك لكان مفهوما. ولكنه قال: مخالف لطبيعته أو جوهره، وكيف يستطيع المخلوق أن يخالف طبيعة الخالق؟

والعجيب أن خوري الناقل عن الإمبراطور: ذكر أن هذه الجملة لدى الإمبراطور الذي امتزجت تعاليمه النصرانية بالفلسفة اليونانية: لا تحتاج إلى إثبات، لأنها دليل بنفسها!

وقد عرَف المسلمون الفلسفة اليونانية، وتعمَّقوا فيها، وبلغوا فيها مبلغا عظيما، وسيطرت على عقول فئة منهم، هم فئة (الفلاسفة) الذين يطلق عليهم مؤرخو الفلسفة: اسم

(المدرسة المشَّائية الإسلامية)[1]، التي تشمل الكِندي والفارابي وابن سينا، ومَن سار في دربهم. وكانت مهمَّتهم الأولى تتلخَّص في التوفيق بين الدين والفلسفة، أو بين الشريعة والحكمة.

وقد اصطدم المتكلمون والفقهاء بالفلاسفة، ونقدهم حُجَّة الإسلام الغزالي في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) وخطَّأهم في سبع عشرة مسألة، وكفَّرهم في ثلاثة. كما نقدهم بعد ذلك ابن تيمية وغيره. ودافع عنهم العلامة ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) الذى رد به على الغزالى.

ومن المعروف أن الفلسفة اليونانية، تشتمل على ألوان كثيرة، تتنوَّع وربما تتناقض، من الفكر، فهناك الشاكُّون والمُشكِّكون من السوفسطائية ومَن تبعهم، وهناك الجاحدون المادِّيون الذين لا يؤمنون بالألوهية، وهناك الوثنيون الذين يؤمنون بآلهة اليونان المختلفة، وهناك المؤلِّهون، الذين يُثبتون الإله، مثل الفلاسفة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ولكن تأليه هؤلاء ليس تأليها خالصا كالذي جاءت به الرسالات السماوية، حتى إن أرسطو، يعلم الدارسون أن إلهه لا يُحرِّك في الكون ساكنا، ولا يعلم عنه شيئا، فليس هو علَّة فاعلة في الكون، بل علَّة غائية، يتحرَّك الكون شوقا إليه. ولذا قال

---

(١) لأن معلمهم الأول: أرسطو، وهو مؤسس المدرسة المشائية اليونانية، وسمِّيت كذلك، لأنه كان يدرس طلابه وهو يمشي في الحديقة!

مؤرخ الفلسفة الأمريكي ول ديورانت في كتابه (مباهج الفلسفة) : يا لإله أرسطو من إله مسكين! إنه مثل ملك الإنجليز، يملك ولا يحكم، لأنه لا يُدبِّر في هذا العالم أمرا. وإله أرسطو لا يعلم شيئا إلا ذاته، وأشدُّ منه في ذلك (أفلوطين) الذي قال: إن الإله لا يعلم شيئا حتى ذاته!!

فيا تُرى ماذا عند الإمبراطور من العناصر الإيجابية التي تُثبت فكرة الألوهية مما اكتسبه من الفلسفة الإغريقية! وقد ذكر البابا في محاضرته بعد ذلك مواقف رجال النصرانية من الفلسفة اليونانية، واختلافهم حولها إلى ثلاث فئات.

الوقفة الثانية مع البابا:

والوقفة الثانية عند قول البابا: نقلا عن خوري: لكن بالنسبة للتعاليم الإسلامية: الله لا شأن له إطلاقا بالعقل، (فوق العقل، يتجاوزه، لا يقارن به)، مشيئة الله لا يحدُّها أي من معاييرنا بما في ذلك المعقولية!

هل هذا الكلام صحيح؟ الجواب: لا، بل لا صحَّة لهذا الكلام بالمرَّة. فعلم الكلام الإسلامي (الذي يختصُّ بالبحث في العقيدة) سواء عند المعتزلة أم الأشاعرة أم الماتريدية: علم قائم على العقل، والعقل وحده. ولا يُدخلون فيه النقل إلا استئناسا، وخصوصا في باب السمعيات. أما الإلهيات والنبوات فإن الأساس فيها المنطق العقلي، والدليل المُعتمد فيها هو الدليل العقلي.

ومَن قرأ كتب علم الكلام الشهيرة، مثل (المواقف)

للإيجي، وشرحها للشريف الجرجاني، و(المقاصد) وشرحها لسعد الدين التفتازاني، و(الطوالع) للبيضاوي : عرَف حقيقة ما نقول .

فدعوى أن (الله) في التعاليم الإسلامية : لا شأن له بالعقل : دعوى مرفوضة . بل ما يرفضه العقل من صفات الله لا يثبت لله سبحانه، حتى لو جاءت به نصوص من القرآن والسنة، لا بدَّ أن تؤول تأويلا يُخرجها عن ظاهرها، حتى تتَّفق مع العقل، وهذا أمر متفق عليه بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة والماتريدية ومَن وافقهما .

وهذا سرُّ المعركة الدائرة بين السَّلَف والخَلَف فيما يُسمَّى بقضية (آيات الصفات) و(أحاديث الصفات) مما يُثبت لله تعالى ما يُشبِّهه بالمخلوقات مثل الوجه واليدين والقدمين والأصابع والأنامل، والنزول والصعود، ونحوها . مع أن مثل هذه العبارات منتشرة في التوراة، وخصوصا سفر التكوين، وهم يأخذونها على ظاهرها، تشبيها للخالق بخلقه، وهو ما يرفضه العقل المسلم، باتفاق السلف والخلف . ويعتبره كفرا ومُروقا من الدين ولهذا يضلِّل الجميع (المشبِّهة، والمجسِّمة) بل يكفِّرونهم إذا لم يكن لهم تأويل تسيغه اللغة . فالله تعالى في الإسلام : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص : ٤] .

والمسلمون يقفون من هذه النصوص مواقف ثلاثة:

(١) السكوت عنها، وتفويض علمها إلى الله تعالى.

(٢) إثباتها لله تعالى مع نفي التشبيه والتمثيل، فيقال: لله يد ليست كأيدينا، وعين ليست كأعيننا.

(٣) تأويلها على ما تقتضيه اللغة من المجاز والكناية وغيرها، فيقال في قوله: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ :كناية عن البخل، ونحو ذلك (١).

والقول بأن مشيئة الله في التعاليم الإسلامية، لا يحدُّها شيء، ولا أي معيار من معاييرنا، بما في ذلك (المعقولية): قول مرفوض، فمشيئة الله تعالى وقُدرته وعلمه وحياته وسمعه وبصره، وكل صفاته لا يجوز أن تخرج عن حدود العقل.

ولكن أي عقل؟ نحن هنا نعني بالعقل: العقل المنطقي العام، لا العقل المُتحيِّز لثقافة معينة، أو المُتشبِّع بفكرة رسخت فيه عن طريق التقليد، أو عن طريق الظن والتخمين، فهذا ليس هو العقل الذي يحتكم إليه العالم المسلم، بل المراد هنا: العقل الحُر، الذي يبني مسلَّماته على أدلة قطعية، لا يتطرَّق إليها خلل منطقي، أو رِيبة في مُقدماتها. فهذا وحده هو الذي يعتمد عليه في ساحة العقائد، التي ترفض الظن في موضع اليقين، فقد عاب

---

(١) للمزيد راجع ما ذكرناه حول هذا الموضوع في كتابنا: (فصول في العقيدة بين السلف والخلف) طبعة مكتبة وهبة القاهرة.

القرآن على المشركين بقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ [النجم: ٢٨].

وقد صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابا نشر في عشرة مجلدات، لبيان قضية جوهرية واحدة، وهي: (درء تعارض العقل والنقل) وقد يذكر أحيانا تحت عنوان: (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) وبيَّن في هذا الكتاب الكبير العميق: أن العقل المراد ليس هو العقل التابع لفلسفة اليونان، المسلِّم بكل مقولاتها، التي يعتبرها أصلا، وما عداها تبعا؛ بل المقصود العقل المجرَّد من ضغط المواريث والأهواء والتبعية لأفكار الآخرين.

وما قاله ابن تيمية مسلَّم ومقبول لدى علماء الإسلام بصفة عامة، من جميع المذاهب والمدارس والاتجاهات.

والذي نقرِّره بوضوح: أن مشيئة الله وإرادته في التعاليم الإسلامية مُقيَّدة بحكمته سبحانه، فلا تنفصل المشيئة بحال عن الحكمة، فلا يريد الله سبحانه شيئا يُخالف حكمته في خَلقه، أو حكمته في أمره، لأن من أسماء الله تعالى الثابتة له: (الحكيم)، وقد ورد في القرآن عشرات المرات، فهو حكيم فيما خلق، وحكيم فيما شرع، لا يخلق شيئا باطلا، ولا يشرع شيئا عبثا.

ولذلك لا يشاء لخَلقه إلا ما فيه خيرهم وصلاحهم، ولا يشاء شرًّا مُطلقا لهم، بل يشاء من الشرِّ الجزئي ما هو من لوازم

الخير. ولذا جاء في مناجاة النبي ﷺ لربه: "الخير بين يديك، والشرُّ ليس إليك" (١).

حتى إن طائفة المعتزلة من أوائل المتكلمين المسلمين: قالوا: إن فعل الصلاح والأصلح واجب على الله تعالى.

وأهل السنة لا يجرؤون على أن يقولوا: إن هناك شيئا واجبا على الله. وإن كان مُحقِّقوهم يقولون: إنه لا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لخَلقه، لأنه بَرٌّ كريم، ورحمان رحيم، لا يبخل عن خير لعباده، ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٤٣].

● الوقفة الثالثة مع البابا:

والوقفة الثالثة: لمناقشة ما نقله عالم الإسلاميات المستشرق الفرنسي (أرنالدز) عن ابن حزم حيث إنه لم يُفهم حقَّ الفَهم، ولم يُوضع في موضعه الصحيح. فابن حزم يرفض مبدأ (الحسن والقبيح العقليين) الذي تبنَّاه المعتزلة، وينفي أن في الأشياء حُسنا ذاتيا اقتضى الأمر الشرعي بها، كما أن فيها قُبحا ذاتيا اقتضى نهي الشرع عنها. بل الحُسن والقُبح يأتي للأشياء من أمر الشرع بها، ونهيه عنها.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأحمد في المسند (٨٠٣)، وأبو داود في الصلاة (٧٤٤)، والترمذي في الصلاة (٢٦٦)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٦٤)، عن علي، ونصه: "... والخير كله في يديك والشر ليس إليك ...".

فالحَسَن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع. ولو أن الشرع جاءنا بعكس ما جاءنا به لكان هو المطلوب منا.

فلو أن الشرع أمرنا بالشرك وعبادة الأوثان، لكان ذلك عند ابن حزم حسنا، ما دام الله تعالى قد أمر به، ولو أنه نهانا عن التوحيد، لكان قبيحا، لأن الله نهانا عنه.

وذلك أن ابن حزم ظاهري النَّزعة، يُنكر التعليل للأحكام، ويرفض إثبات الحكمة لها، ولهذا ينفي القياس في الفقه ولا يُثبته كما يرى ابن حزم: أن العقل مخلوق بعد أن لم يكن، وهو مخلوق على ترتيب إرادة الله له، ولو شاء لخلقه على ترتيب آخر، غير الترتيب الذى نعرفه الآن، ولكان حكمه على الأشياء، من حيث وجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، وإمكان الممكنات: حكما آخر غير حكمه الآن. هو - من الناحية العقلية المحض - يُجوِّز أن يكون المأمور به منهيا عنه، والمنهى عنه مأمورا به .

● **نص كلام ابن حزم من كتابه الإحكام:**

وهذا ما قرره بوضوح فى كتابه الأصولى المعروف (الإحكام فى أصول الأحكام) يقول: (وليس اعتقادنا التوحيد حقًّا ولا حكمة بذاته، دون أن يكون لله فيه أمر، ولكن إنما صار حقًّا وعدلاً وحكمة؛ لأن الله تعالى أمر به ورضيه وسمَّاه حقًّا وعدلا وحكمة فقط، فهذا دين الله عز وجل الذي نصَّ عليه بأن يفعل

ما يشاء؛ وأنه: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٣] ، وأنه لو أراد أن يتَّخذ ولدا لاصطفى ممَّا يخلق ما يشاء، وهذا هو القول الذي دلَّت العقول على صحته وبطلان ما عداه، لأن العقل يشهد أن الله تعالى خلقه، وأنه كان تعالى حقًّا واحدا أولا، إذ لا نفس حيوانية ولا عقل مركَّب فيها ولا في غيرها، ولا جوهر ولا عرض، ولا عدد ولا معدود ولا رتبة من الرتب، وأنه تعالى خلق النفوس بعد أن لم تكن، وخلق العقول على ما هي عليه بعد أن لم تكن، ورتَّب فيها الرتب على ما هي عليه بعد أن لم يكن شيء منها، وأنه لو شاء أن يخلق العقول على غير ما هي عليه، وأن يرتِّب الأمور فيها على خلاف ما رتَّبها لفعله، ولما تعذَّر ذلك عليه. ولكان حينئذ هو الحقُّ والعدل والحكمة، وما عداه الظلم والجَور والعبث، لا معقِّب لحكمه.

ومَن ادَّعى غير هذا، فقد ادَّعى أن رتبة العقل المجهول في النفس كانت موجودة إذ لا عقل ولا نفس، وهذا عين التناقض والخبال والخُلف والمُحال، ومن أنار الله تعالى عقله وسيَّره لأن يستضيء به، وتصوَّر له حدوث العالم بعد أن لم يكن، أشرف على صحة ما ذكرناه وأيقنه وشاهده وعلمه ضرورة، ولم يكن عنه له محيد أصلا. ومَن أصحب الله تعالى نفسه الحَيرةَ، وتمييزه الضعفَ، تحيَّر وتصوَّر الأمور بخلاف ما هي عليه، ولم يخرج إلى

طرف. وظنَّ الظنون المُردية، ولله تعالى الحمد على ما علَّم وهدى، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) [1].

ومن أقوال ابن حزم في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام): (والعقل لا يوجب على الباري تعالى حكما، بل الباري تعالى خالق العقل بعد أن لم يكن، ومرتِّب له وفيه ما قد رتَّب مما لو شاء أن يخترعه ويرتِّبه على خلاف ذلك لفعل، وإنما العقل مُفهِم عن الله تعالى مراده، ومميِّز للأشياء التي قد رتَّبها الباري تعالى على ما هي عليه فقط.

فقال هؤلاء: إن الكفر والظلم لا يتوهم جواز استباحته.

قال علي: (أى ابن حزم) ولا دليل على ما ذكروا، بل قد كان ممكنا أن يأمرنا تعالى بالكفر به وبجحده وبعبادة الأوثان وبالظلم، ولكنه تعالى قد أخبرنا أنه لا يفعل ذلك، فعلمنا أن ذلك لا يكون أبدا، ليس لأنه ممتنع منه عزَّ وجلَّ لو شاءه، ولا أنه تعالى عاجز عن ذلك لو أراده، ولكن لأنه لا يقول إلا الصدق، وقد أخبرنا أن ذلك لا يكون، وأنه لا يرضى لنا الكفر، ولا يأمر أن نتَّخذ إلهين اثنين، فلما أخبرنا بذلك منعنا من كونه، كما منعنا أن يأتي رسول بعد محمد ﷺ) [2].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام جـ ١ صـ٤٥٠، ٤٥١ طبعة مطبعة الإمام بالقاهرة.

(٢) المرجع السابق صـ٤٦٣.

هذا ما قاله ابن حزم فى هذه القضية الكبيرة، بناء على رأيه فى أن العقل مخلوق، وأن العالم كله حادث، وأن كل شىء كان يمكن – لو أراد الله – أن يكون على غير ما هو عليه. إذ لا رادَّ لإرادة الله، ولا معقب لحكمه.

ولكن مذهب ابن حزم وفقهه، لا يُوافق عليه جمهرة علماء الأمة الإسلامية، وليس هو الفكر الذي ساد المدارس الإسلامية، ووجَّه الثقافة الإسلامية، بل هو فكر مرفوض من معظم الطوائف الإسلامية.

وممَّن ردَّ على هذا المنطق الأعوج، والفهم الأعرج: شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، فضلا عن المعتزلة وسائر علماء الماتريدية.

حتى الذين يقولون من الأشاعرة: الحَسَن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع. لا يصلون إلى الحدِّ الذي وصل إليه ابن حزم.

ولن أجد أبلغ ولا أوضح من كلام شيخنا العلاَّمة الدكتور محمد عبد الله دراز في توضيح هذه القضية، إذ قال في كتابه (كلمات في مبادئ علم الأخلاق) وقد درَّسه لنا في تخصص التدريس بالأزهر، وذلك حين قرَّر أن الإسلام يرجع إلى العقل والفطرة في الحُكم الخُلُقي أو الإلزام الخُلُقي قبل ورود الشرع، وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه. ويُدلِّل على ذلك بالنصوص من القرآن والحديث، ثم يقول متسائلا: (وبعد فما لي أراك ها هنا في شيء من الدهشة والاضطراب، كأنك تخشى أن نكون في

هذه القضية قد أقدمنا على أمر خطير؟ لعلك سمعتَ بعض أهل العلم يقولون: إن تحكيم العقول في حُسن الأفعال وقُبحها إنما هو مقالة أهل الاعتزال، وإن أهل السنة لا يرون للأفعال في نفسها حُسنا ولا قُبحا، وإنما الحَسَن ما أمر به الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع!

ألا فاعلم أنه ليس في الدنيا عاقل: أشعري ولا معتزلي ولا غيرهما، يُنكر ما منحه الله للإنسان من مَلَكَة التمييز بين الأفعال، والحُكم عليها بالحُسن أو القُبح، بمعنى أن بعضها يُعدُّ صفة كمال، وبعضها يُعدُّ صفة نقص، أو أن بعضها يقبله الطبع المستقيم، وبعضها يمجُّه الذوق السليم، أو أن بعضها يُمدح فاعله، وبعضها يُذمُّ مرتكبه ... فذلك كلُّه مما لا جدال فيه.

وأما الجدل الذي سمعتَ خبره بين الأشاعرة والمعتزلة كان في شأن آخر: وهو أن هذه الأحكام التي تُصدرها عقولنا، هل نجزم بمطابقتها للواقع وبأنها هي حُكم الله في نفس الأمر؟ وهل نعتقد أن الله كلَّفنا باتباعها، وسيحاسبنا عليها، ويجزينا بها مثوبة أو عقوبة، من قبل أن يُرسل بها رسولا من عنده، أو يُنزل إلينا بها كتابا نقرؤه؟ أم أننا ينبغي لنا ألا نتخذَّ أحكامنا مرآة صادقة لأحكام الله، ولا نجترئ على القول بأنها مقياس أمره ونهيه، إلا أن يبعث إلينا من عنده، من يُقرِّنا عليهما، ويُلزمنا بقضيتهما[1]؟) اهـ.

---

(١) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق.

وهذا ما قرَّره العلاَّمة سعد الدين التفتازاني، المُتكلم الأُصولي البلاغي الشهير في كتابه (شرح المقاصد) أي مقاصد الطالبين في أصول الدين. قال رحمه الله:

(قد اشتهر أن الحُسن والقُبح عندنا شرعيان، وعند المعتزلة عقليان. وليس النزاع فيْ الحُسن والقُبح بمعنى صفة الكمال والنقص، كالعلم والجهل. وبمعنى الملاءمة للغرض وعدمها، كالعدل والظلم. وبالجملة كل ما يستحقُّ المدح أو الذمَّ في نظر العقول، ومجاري العادات، فإن ذلك يُدرك بالعقل، وَرَدَ الشرع أم لا.

وإنما النزاع في الحُسن والقُبح عند الله تعالى، بمعنى استحقاق فاعله - في حُكم الله تعالى - المدح أو الذمَّ عاجلا، والثواب والعقاب آجلا.

ومبنى التعرُّض للثواب والعقاب على أن الكلام في أفعال العباد، فعندنا ذلك بمُجرَّد الشرع، بمعنى أن العقل لا يحكم بأن الفعل حَسَن أو قبيح في حُكم الله تعالى، بل ما ورد الأمر به فهو حَسَن، وما ورد النهي عنه فقبيح، من غير أن يكون للعقل جهة مُحسِّنة أو مُقبِّحة في ذاته، ولا بحسب جهاته واعتباراته. حتى لو أمر بما نهى عنه صار حَسَنا وبالعكس.

وعندهم للفعل جهة مُحسِّنة أو مُقبِّحة في حُكم الله تعالى، يُدركها العقل:

بالضرورة، كحُسن الصدق النافع، وقُبح الكذب الضار.

أو بالنظر، كحُسن الكذب النافع، وقُبح الصدق الضار.

أو بوُرود الشرع، كحُسن صوم يوم عرفة، وقُبح صوم يوم العيد.

فإن قيل فأي فرق بين المذهبين في هذا القسم؟

قلنا: الأمر والنهي عندنا من مُوجبات الحُسن والقُبح، بمعنى أن الفعل أُمر به فحُسن ونُهي عنه فقُبح. وعندهم من مقتضياته، بمعنى أنه حسُن فأُمر به، أو قبْح فنُهي عنه، فالأمر والنهي إذا ورد كشفا عن حُسن وقُبح سابقين حاصلين للفعل لذاته أو لجهاته)[1].

● الإسلام والعقل:

ركّز بابا الفاتيكان في محاضرته على قضية العقل وصلته بالإيمان، أو الإيمان وصلته بالعقل، واعتبر الديانة النصرانية ديانة قائمة على العقل! ولهذا رفضت العنف، بخلاف الإسلام، الذي اعتبر الجهاد فريضة. وهو يرى ذلك أمرا ضدّ العقل، وهو ينافي (الطبيعة الإلهية)، التي تتنافى مع كل عمل يقوم على استخدام القوة مع الآخرين، وهذا أمر يستحق المناقشة.

● العقل بين القرآن والكتاب المقدس:

هل صحيح أن النصرانية تُعنى في عقائدها برعاية العقل، وترفض كل ما يخالفه؟

---

(١) شرح المقاصد للتفتازاني صـ ١٤٨، ١٤٩.

وهل صحيح أن الإسلام لا يُعنى بأمر العقل، ولا يبالي أن يناقضه في عقائده؟

الحقيقة: أن الردَّ على هذين السؤالين كليهما بالنفي. بل العكس هو الصحيح، بل الصواب الذي تثبتُهُ كلُّ البراهين من داخل الدينين ونصوصهما ومصادرهما، ومن خلال موقف كل منهما مع العقل والعلم في التاريخ.

مَن يقرأ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد: فلا يكاد تمرُّ به هذه الكلمات: عقل يعقِل، وتفكَّر يتفكَّر، ونظر ينظُر، وكلمات: البُرهان والحجَّة والبيِّنة، والحكمة والفقه، والعلم والتدبُّر، والألباب والنُّهي، وأمثالها.

وهذه الكلمات شائعة في القرآن الكريم في سُوره المكيَّة والمدنيَّة، وقد ألَّفتُ كتابا سميتُه: (العقل والعلم في القرآن الكريم) [1]، بيَّنتُ فيه موقف القرآن من العقل والعلم، وهو أمر في غاية الوضوح. وهو ما جعل كاتبا عربيا مدنيا كبيرا مثل الأستاذ عباس العقاد، يؤلِّف كتابا عنوانه: (التفكير فريضة إسلامية).

إن المحقِّقين من علماء الإسلام مثل: الباقلاني والإسفراييني والجُويني والغزالي والرَّازي والآمدي، وغيرهم: جعلوا العقل أساس

(١) نشر مكتبة وهبة في مصر، ومؤسسة الرسالة في بيروت، وطبع عدة مرات.

النقل، ولو انتفى العقل لانهدم النقل. أي انتفىَ ثبوت الوحي والنبوة، لأن النبوة لم تثبُت إلا بالعقل، إذ يستحيل أن تثبُت بالنقل، وإلا لزم الدور.

ويُعبِّر الإمام الغزالي عن ذلك بأن العقل هو الذي يثبتُ النقل، وبعد ذلك (يعزل العقل نفسه) ليتلقَّى من الوحي الإلهي، قائلا لكلٍّ ما يأمره به أو ينهاه عنه: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾

[البقرة: ٢٨٥]

ويُقرِّر المحقِّقون من العلماء: أن إيمان المُقلد غير مقبول، ولا يُحقِّق له النجاة عند الله والخلاص في الآخرة، بل يجب أن يؤمن عن طريق الدليل، ولو كان إجماليا، وغير مُرتَّب ترتيبا منطقيا. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٣]. كما قال صاحب الجوهرة في علم التوحيد:

إذ كلُّ مَن قلَّد في التوحيد إيمانُه لم يخلُ من ترديد

وهذا بخلاف الإيمان في النصرانية، فهو قائم على الوجدان لا على البُرهان، وعلى التسليم لا على التفكير، وعلى العقلية لا النظر ولهذا شاع عندهم قولهم: آمن ثم اعلم! اعتقد وأنت أعمى! أغمض عينيك ثم اتبعني!

● الإمام محمد عبده يردُّ على فرح أنطون:

وقد ثارت قضية مُشابهة من بعض الوجوه، لقضية البابا في

عصر الشيخ الإمام محمد عبده، أثارها الكاتب اللبناني فرح أنطون في (مجلة الجامعة)، التي كان يُصدرها، وزعم فيها أن النصرانية بما فيها من التسامح تتَّسع للعلم والفلسفة بما لا يتَّسع له صدر الإسلام، الذي يجمع بين السُلطتين الرُّوحية والزمنية في صورة قيادة واحدة.

وردَّ عليه الأستاذ الإمام بمقالات علمية فكرية موضوعية موفَّقة، بقلمه البليغ، وبعقله الكبير، وبثقافته الرَّحبة، فأبطل حُجَّته، وأسقط دعواه[1]، وبيَّن بما لا يَدَع مجالا للشك: أن الإسلام بأصوله القطعية هو الذي يتَّسع حقًّا للعلوم والفلسفات، وهو الذي أقام العلم والمدنية، ووسع الفلسفة، ولم يعرف تاريخه صراعا بين العلم والدين، كما عرَفته أوربا المسيحية. وقد صدر بعد ذلك في كتاب بعنوان: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) نشرته (المنار) وطبع عدة مرات، بتعليق تلميذه العلامة محمد رشيد رضا.

ولا بأس هنا أن نقتبس بعض ما قاله الشيخ الإمام رحمه الله، وهو يتحدث عن أصول الإسلام، قال:

---

(١) كما ردَّ على رينان في محاضرته في السوربون عن (الإسلام والعلم)، وأن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية! إلخ. كما ردَّ على المستشرق الفرنسي (هانوتو) بمقالاته الشهيرة. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

الأصل الأول للإسلام: النظر العقلي لتحصيل الإيمان:

(فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي. والنظر عنده: هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك معه على سبيل الحُجَّة وقاضاك إلى العقل، ومَن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحقِّ، ثم لم يصل إليه ومات طالبًا غير واقف عند الظنِّ، فهو ناج. فأي سَعة لا ينظر إليها الحَرج أكمل من هذه السعة؟

● الأصل الثاني للإسلام: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض:

أُسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدِّم قبل أن أنتقل إلى غيره: اتفق أهل المِلَّة الإسلامية إلا قليلاً ممَّن لا يُنظَرُ إليه: على أنه إذا تعارض العقل والنقل [1]، أُخِذَ بما دلَّ عليه العقل، وبقي في النقل طريقان:

---

(١) يعني إذا تعارض الدليلِ العقلي القطعي مع ظاهر النقل غير القطعي الثبوت والدلالة - كما صرح به العنوان - يؤخذ بالدليل العقلي القطعي إلخ، وخرج بالقطعي: النظريات العقلية غير القطعية، كأكثر نظريات الفلاسفة والمتكلمين، فهذه لا تُقدَّم على ظاهر النقل الصحيح، وإن لم يكن قطعي الدلالة. (فإن قيل): وما تقولون في تعارض الدليلين القطعيين من العقل والشرع، وأيهما تقدمون؟ ما يقوله علماء الإسلام كافة: إن القطعيين لا يتعارضان، وإن صحيح المنقول في الإسلام موافق دائما لصريح المعقول، ففرض التعارض بينهما باطل.

طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه.

والطريق الثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة[١]، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، مُهِّدَتْ بين يدي العقل كل سبيل، وأُزِيلَتْ من سبيله جميع العقبات، واتَّسع له المجال إلى غير حدٍّ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ وأي فضاء يسَع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسَعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن في هذا مُتَّسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها، ولا سماء بأجرامها وأبعادها!!

● أصل ثالث من أصول الأحكام في الإسلام: البعد عن التكفير:

هلاً ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين

---

(١) خرج بهذا القيد: تأويلات الباطنية وغُلاة الصوفية وأمثالهم، والتأويل طريق الخَلَف، والتفويض طريق السَّلَف، ولكن لا كما قال الأستاذ، بل مذهبهم إمرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، فنقول: استوى على العرش، لا كاستوائنا، كما أن علمه ليس كعلمنا، وكذا قُدرته إلخ. رشيد رضا. وأقول: التفويض هو مذهب أكثر السلف، والإثبات مع نفي التشبيه هو مذهب كثيرين أيضا، وهو الذي اختاره ابن تيمية. انظر كتابنا (فصول في العقيدة بين السلف والخلف) نشر مكتبة وهبة.

وعُرف من قواعد أحكام دينهم، وهو: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمِلَ على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.

فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحُمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ، كان الأجدر به أن يذوق حُكم محكمة التفتيش البابويَّة، ويُؤخذ بيديه ورجليه فيُلقى في النار.

أصل رابع في الإسلام: الاعتبار بسنن الله في الخلق:

يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتقاد - وهو أن لا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل، وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات - أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها، ذلك هو أصل: العبرة بسُنة الله فيمَن مضى ومَن حضر من البشر، وفي آثار سيرهم فيهم.

فممَّا جاء في الكتاب العزيز مُقرِّرًا لهذا الأصل: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٧] ، ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٧] ، ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن**

تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر:٤٣] ، ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩]، إلخ .

في هذا يُصرِّح الكتاب أن لله في الأُمم والأكوان سُننًا لا تتبدَّل، والسُّنن: الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار. وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويُعبَّر عنها بالقوانين، ما لنا ولاختلاف العبارات؟ والذي ينادي به الكتاب: أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وعلى مَن يطلب السعادة في هذا الاجتماع: أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يردَّ إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه. فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظرنَّ إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبُه، أو اتصلَّ بالمُقربين سببُه. فمهما بحث الناظر وفكَّر وكشف وقرَّر، أتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه؟) [1] اهـ.

وذكر الأستاذ الإمام أصلين آخرين من أصول الإسلام، هما:
الأول: نفي السلطة الكهنوتية المتحكمة في ضمائر الناس.
والآخر: الجمع بين الدين والدنيا.

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للإمام محمد عبده صـ٥١ – ٥٥ طبعة دار المنار الثامنة ١٣٧٣هـ.

أصول النصرانية:

وقبل ذلك تحدَّث الإمام محمد عبده عن أصول النصرانية، وهل تتَّسع للعلم أو تضيق به؟ مُحتكما إلى مصادر النصرانية وأقوال رجالها، فذكر ستة أصول: الخوارق، السلطة الكهنوتية، ترك الدنيا، الإيمان بغير المعقول، الكتب المقدسة تحتوي علوم الدين والدنيا معا، التفريق بين المسيحين وغيرهم حتى الأقربين.

وسنكتفي بالاقتباس من كلام الإمام هنا: ما قاله في الأصلين: الأول والرابع. قال رحمه الله:

● الأصل الأول للنصرانية: الخوارق:

(أول أصل قام عليه الدين المسيحي، وأقوى عماد له هو: خوارق العادات. تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الإناجيل يطول شرحه. ثم إنه جعل ذلك دليلا على صحَّة الدين لمَن يأتي بعده، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى وغيره، إذا تتبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات، على صحة الاعتقادات، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يُعرف له حكم مخصوص.

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون، كما قال في الإصحاح السابع عشر من متَّى (١٠): (فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبَّة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير مُمكن لديكم)، وفي الحادي عشر من مُرقص (٢٣): (لأني الحق أقول لكم: إن مَن قال لهذا الجبل: انتقل وانطرح في البحر. ولا يشكُّ في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له (٢٤) لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم).

فكل بحث يُؤدِّي إلى أن للكون شرائع ثابتة وأن للعلل أو الشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبَّب عنها، أو ما استحال وجوده لوجودها كان مُضاداً لهذا الأصل في أي زمن. وقد كان كل علم من علوم الأكوان لا بدَّ فيه من هذا البحث، فكل علم مُضادٌّ لهذا الأصل، ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمُسببات، لأن اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله، فهو في غنى عن العلم، والعلم عدو لما يعتقد. فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه.

الأصل الرابع للنصرانية: سلطة الرؤساء الدينيين:

وبعد هذا الأصل أصل آخر، وهو: السلطة الدينية التي مُنحت للرؤساء على المرءوسين في عقائدهم، وما تُكنُّه ضمائرهم. وقد أحكم هذه السلطة ما ورد (١٦ :١٩) من إنجيل متَّى: (أُعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السموات، وكل ما تحلُّه على الأرض يكون محلولا في السموات)، وفي (١٨ :١٨) منه: (الحق أقول لكم: كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا في السماء، وكل ما تحلُّونه على الأرض يكون محلولا في السماء).

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص: إنه ليس بمسيحي صار كذلك. وإذا قال: إنه مسيحي فاز بها. فليس المُعتقد حُرًّا في اعتقاده، يتصرَّف في معارفه كما يُرشد عقله، بل عينا قلبه مشدودة بشفتي رئيسه. فإذا اهتزت نفسه إلى بحث وقفها القابض على تلك السلطة. وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم، فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا)[١] اهـ.

أثر الأصول المسيحية في الحياة العلمية والفكرية:

ولم يكتف الإمام محمد عبده ببيان الأصول النظرية لكل من الدينين: الإسلام والنصرانية، بل ذكر ما أنتجته هذه الأصول

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ٢٢، ٢٣.

في الواقع التاريخي، مُستشهدا بالوقائع الثابتة والمعروفة من تاريخ الديانتين، وتاريخ الأُمتين: الإسلامية والمسيحية، وخصوصا تاريخ أوربا، التي بلغت اليوم من الرُّقي العلمي ما بلغت، ويحاول بعضهم أن ينسب هذا إلى المسيحية.

هذا وكل الدارسين المُحققين يعلمون: أن المسيحية وتعاليمها المثالية في واد، والحضارة الأوربية أو الغربية في واد آخر، وشتَّان ما بينهما.

ولهذا قلت في بعض ما كتبت: إنها ليست حضارة المسيح ابن مريم، وإنما هي حضارة المسيح الدجال.

وأحيل القارئ الكريم إلى (الملاحق) في آخر الكتاب، ليقرأ عن (مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ) [1].

* * *

(١) انظر: ملحق (٦).

(٣)
نتائج الأصول الإسلامية
في الحياة العلمية والفكرية للمسلمين

وكما بيَّن الأستاذ الإمام محمد عبده آثار الأصول العقدية التي قامت عليها الديانة المسيحية في حياة النصارى العلمية والفكرية، وضرب من الأمثلة، وذكر من الوقائع، ما يُقنع كل عاقل، ويُخرس كل مُكابر: ذكر في مقابله نتائج الأصول العقدية التي قامت عليها الديانة الإسلامية، وآثارها في الحياة العلمية والفكرية للمسلمين.

قال رحمه الله:

(إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين؟ فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر، واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية، وتسع سنوات في رواية أخرى، والإسلام في طلوع فجره وتفتح نوره. فكان مَن بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي، كان في بدء أمره ملاحا يعبر

الناس بسفينته، وكان يميل إلى العلم بطبيعته، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم، ثم اشتدَّ به الشوق فترك الملاحة.واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم؛ وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة، حتى عُدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته.

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين: إن ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر، حتى قال أحد فلاسفة الغربيين: (إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي: بمجرد ما أُعتق من الوثنية الجاهلية، ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع).

خالط المسلمون أهل فارس وسُورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم، حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية، ولم تُغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين، فاحتكت الأفكار بالأفكار، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع.

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية:

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام، أخذ الخليفة

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يحضُّ على تعليم الآداب العربية، ويطلب وضع القواعد لها، لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم إليه دينهم، وتُنبههم لطلبه شريعتهم، وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع على أمر الخلافة، قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم، فإنها لم تشغلهم عن تلمُّس العلوم والتناول منها بالتدريج على سُنة الفطرة. فالبراعة في الآداب: من علم بوقائع العرب وتاريخهم، وقول الشعر، وإنشاء البليغ من النثر. قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها، وكان الخلفاء الأمويون يُعلون منزلتها، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسِّيَر، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم، وتُرجمت جُملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول.

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام، ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فلما سأل عنه دُلَّ عليه فذهب إليه، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو في قصر مشيد مُحلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية،

مُزين بالجنات والرياض وينابيع الماء، مفروش بأحسن الفُرُش، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه، وإنما تناول مباحا وتمتَّع برخصة آتاه الله إياها. ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الإبداع في الصنعة على اختلاف ضروبها.

اشتغالهم بالعلوم الكونية في أوائل القرن الثاني:

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا، ودالت الدولة لبني العباس، واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢هـ)، ثم نقل المنصور عاصمة المُلك إلى بغداد، فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنيَّة أيضا، وأخذ المنصور أيضا يُنشئ المدارس للطب والشريعة، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية، وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه، وأمر بأن يُلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أَوْجِ قوتها، ونالت به أكبر ثروها، ويقال: إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يُثقل مائة بعير، وكان من شروط صُلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيَه مكتبة من مكاتب الأستانة، فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسمَّوه بالمجسطي، ولا يسهل على كاتب إحصاء ما تُرجم من

كـتـب العلـوم علـى اختـلافـهـا في دولة بني العباس أبناء عم الرسول ﷺ (١) .

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة :

وقـد أخـذت دولة الإسـلام تعـتني بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها، حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة ألف مُجلَّد، منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير. وكان من نظامها أن تُعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة، وكان فيها كُرتان سماويتان، (إحداهما) من الفضة، يقال إن صانعها بطليموس نفسه، وأنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار. (والثانية) من البرونز. ومكتبة الخلفاء في أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد، وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلدا. وقد حقَّقوا أنه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة.

وبعض الخاصة كانوا يُولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه. يقال: إن سلطان بُخارى دعا طبيبا أندنوسيا ليزوره، فأجابه: إن ذلك لا يمكنه؛ لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها، وهو لا يستغني عنها كلها. وكان حنين

---

(١) يلاحظ أن أشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم أعلمهم بالدين الإسلامي وأشدهم محافظة عليه.

ابن إسحاق النسطوري في بغداد ممَّن جعل في داره مكتبة عامة يَفِدُ إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية، وكان يتبرع بمُذاكرتهم فيما يريدون المُذاكرة فيه)[1] اهـ.

تعانق الدين والعلم في تاريخنا الإسلامي:

والدارس لحضارتنا الإسلامية، ولتاريخنا الإسلامي، بعُمق: يجد فيه مآثر ومزايا لا توجد في غيره من تواريخ الأُمم والحضارات، وكلها من آثار الإسلام وتعاليمه، ونضحه على الأُمة التي صنعت هذا التاريخ.

من هذه المآثر والمناقب المشهورة: أن العلم والدين في حضارتنا يتعانقان، ولا يتصارعان، ويتفقان ولا يختلفان، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين. ولهذا لم يقُم عندنا ما قام عند أمم أخرى - مثل الأمم الأوربية في عصورهم الوسطى - من صراع تأجَّجت ناره بين العلم والدين، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين الشريعة والحِكمة.

لقد عرَف تاريخ أوربا هذه المعارك المُشتعلة بين العلم والدين، وبعبارة أخرى: بين رجال العلم والفكر من رُوَّاد الابتكار والاختراع في مجالات العلم المختلفة من ناحية، وبين رجال الكنيسة الغربية المُمثِّلين للدين والمُتكلمين باسمه من ناحية أخرى... فقد تبنَّوا نظريات معينة تلقوها من فلسفة اليونان،

---

(١) الإسلام والنصرانية صـ٧٧ - ٨١.

أضفوا عليها لونا من القداسة والعصمة - وهي فكر بشري محض - ولم يسمحوا لأحد أن يُخالفها، أو يخرج عن إطارها، ومَن فعل ذلك استحقَّ لعنة الله، وحُكم عليه بالإلحاد والهرطقة، والـمُروق من الدين.

وأنشئت (محاكم التفتيش) الرهيبة، لتُلاحق هؤلاء الذين اجترأوا على حُرمة الدين، واستباحوا الحمى الـمُحرَّم، وخرجوا عن النطاق المرسوم، فقرَّروا مثلا: أن الأرض كُروية، وليست مبسوطة.

هذا في الوقت الذي كان فيه طلاب العلم من المسلمين يقرأون في كتب التفسير مثل: تفسير الفخر الرازي، وفي كتب (علم الكلام) مثل كتب الجرجاني والتفتازاني، وفي كتب (المِلل والنِّحل) مثل كتاب ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ): فكرة كُروية الأرض والتدليل عليها [١]، ولا يجدون في ذلك حرجا في الدين، ولا عنتا في الدنيا.

---

(١) قال أبو محمد بن حزم تحت عنوان (مطلب بيان كروية الأرض): وهذا حين نأخذ إن شاء الله تعالى في ذكر بعض ما اعترضوا به، وذلك أنهم قالوا: إن البراهين قد صحَّت بأن الأرض كُروية، والعامة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: أن أحد من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها، قال الله عز وجل: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ [الزمر:٥] ... انظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم جـ٢ صـ ٧٨.

لقد نشأ المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي في تُربة الحضارة الإسلامية، ونما وترعرع على أيدي علماء المسلمين، نظريًّا وفلسفيًّا، وعمليًّا وتطبيقيًّا. ونمت علوم الفيزياء والفلك والكيمياء والتشريح والطب والرياضيات وغيرها، نمواً حافلاً، تُوِّج بتطبيقات ناجحة، في شتَّى مجالات الحياة والإنسان. وكذلك نقد المسلمون المنهج الصُّوري القياسي الأرسطي، كما نرى ذلك في نقد ابن تيمية للمنطق نقداً علمياً رصينا (١).

وعن الحضارة الإسلامية أخذ الأُوربيون المنهج التجريبي. روجر بيكون، وفرنسيس بيكْون وتلاميذهما، إنما تتلمذوا على المسلمين وعلومهم وحضارتهم، واقتبسوا منهم، ونقلوا عنهم، وهذا ما اعترف به المؤرخون والباحثون المنصفون من الغربيين، كما نقلنا من قبل.

التلاقي بين النقل والعقل:

ومن المُؤسف: أن بعض من تعرضوا للعلاقة بين الدين والعلم أو بين النقل والعقل، أوهموا في كتاباتهم: أن البيئة الدينية لا تهيئ لمناخ علمي مزدهر، وذلك لما افترضوه في زعمهم من وجود صراع بين النقل والعقل، أو بين النص الإلهي والاجتهاد

---

(١) انظر تحليلا علميا مفصلا لهذا النقد في كتاب الدكتور سامي النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) طبعة دار المعارف الطبعة الثانية صـ١٩٠ - ٢٠٢.

البشري، وهذا يصدُق في غير الإسلام والمسلمين. أما بالنسبة لهما، فهو بالقطع غير صحيح، بل تردُّه النصوص، ويردُّه التاريخ، ويرده الواقع؛ فالعقل هو المخاطب بنصِّ الشارع، والمُكلَّف بفهمه والعمل به، والاجتهاد في دلالته، وملء الفراغ فيما لا نص فيه. وقد ترك النقل أو الوحي للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول، ولم يحجِر عليه في ذلك، بل أمره وحرَّضه ودعاه للبحث الحُر والإبداع.

حتى إن علماء المسلمين اعتبروا تعلُّم العلوم الكونية من الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها فرض كفاية على الأمة، إذا قام به عدد كاف يُلبي الحاجة في كمِّه ونوعه: رُفع عنها الإثم، وإن لم يقُم أثِمت الأمة كلها. وقد ذكرنا أنه لم يقُم في حضارتنا صراع قط بين العلم والدين، أو بين الوحي والعقل، كما قام عند غيرنا.

والمُحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحي والعقل هاديين الخلق إلى الحق. يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيِّم (الذريعة إلى مكارم الشريعة):

(لله عز وجل إلى خلقه رسولان، أحدهما: من الباطن وهو العقل، والثاني: من الظاهر وهو الرسول، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدم الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحُجَّة بقوله،

ولهذا أحال الله مَن يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها. فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً، واجتماعهما كما قال الله تعالى: ﴿ **نُورٌ عَلَى نُورٍ** ﴾ [النور:٣٥] [١] اهـ

ويؤكِّد ذلك مُعاصر الراغب: الإمام أبو حامد الغزالي في عدد من كتبه. ففي مقدمة (المستصفى) يعتبر العقل: القاضي الذي لا يُعزل ولا يبدَّل، والشرع: الشاهد المُزكَّى المُعدَّل، ويجعل العقل مركب الديانة، وحامل الأمانة[٢] .

وفي (الإحياء) يُقرِّر: أن لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع، (فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضرُّ بالغداء متى فاته الدواء). ويُنكر على مَن يظن أن العلوم العقلية مُناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير مُمكن، وهو في رأيه ظن صادر عن عمًى في عين البصيرة [٣] .

---

(١) انظر: (الذريعة إلى مكارم الشريعة) صـ٢٠٧ بتحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي، طبع دار الصحوة بالقاهرة.

(٢) المستصفى (١/٣).

(٣) الإحياء (٣/١٧) طبع دار المعرفة، بيروت. ويلاحظ أن الراغب في (الذريعة) يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر صـ٢٠٨.

وفي (الاقتصاد في الاعتقاد) يصف عصابة الحق وأهل السنة أنهم : الذين وفَّقوا بين مقتضيات الشرائع، ومُوجبات العقول، وتحقَّقوا أن لا مُعاندة بين الشرع المنقول، والحق المعقول[١].

وفي كتاب (معارج القدس) الذي يُنسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات :

(اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبيَّن إلا بالعقل، فالعقل كالأسِّ والشرع كالبناء، ولن يُغني أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبتَ بناء ما لم يكن أسٌّ") .

وأيضاً، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يُغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يُغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل مُتحدان[٢] .

ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيراً ممَّن نبغوا في المجالين : العلوم الشرعية، التي تُستفاد من الوحي والعلوم العقلية، التي تُستفاد من العقل . ومن هذه العلوم العقلية : العلوم الطبيعية، (من الفلك والفيزياء والكيمياء وغيرها) والرياضية، والطبية .

---

(١) من مقدمة كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) للغزالي .

(٢) (معارج القدس) صـ٥٧ طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت، وانظر تعليقنا عليه في كتابنا (الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه) صـ٤١ .

فجابر بن حيان يسمى جابراً الصوفي.

والخوارزمي مُبتكر علم الجبر، إنما وصل إليه، وهو يؤلِّف رسالة في فقه الوصايا والفرائض (أي علم الميراث). وقارئ الرسالة يجد القسم الأول منها: فقهيًّا بحتًا، والقسم الثاني: رياضيًّا بحتًا.

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب (الكُليات) في الطب، الذي تتلمذت عليه أوروبا عدة قرون: هو نفسه صاحب كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن، وهو من أعظم ما كُتب فيه، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكية.

والفخر الرازي صاحب (التفسير الكبير) والكتب الشهيرة في أصول الدين، وأصول الفقه، وهو من فقهاء الشافعية، ومتكلمي الأشعرية: كان من أشهر الأطباء في زمنه، وقال الذين ترجموا له: لم تكن شُهرته في علوم الطب تقلُّ عن شُهرته في علوم الدين.

وابن النفيس مُكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول مَن أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية، هو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي في (طبقاته)، وترجم له الذهبي وغيره من مؤرخي الأعلام في الإسلام [١، ٢].

---

(١) انظر في تراجم هؤلاء: سير أعلام النبلاء للذهبي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، والأعلام للزركلي.

(٢) راجع هذا بالتفصيل في كتابنا (تاريخنا المفترى عليه) ط دار الشروق. القاهرة صـ١٣٣ – ١٣٧ .

(٤)
الرفق والعنف أو السلام والحرب
بين
شريعة القرآن وشريعة التوراة

لقد كان أول ما شغل البابا من أمر الإسلام - وهو الذي بنى عليه محاضرته - هو (العنف) الذي يظهر أنه يحسبه من طبيعة الإسلام، لماذا؟

لأمور ثلاثة:

الأول: أن العقيدة الإسلامية نفسها لا ترفض العنف، لأن الله يمكن أن يشاء أي شيء، ولو كان يجافيه العقل.

الثاني: أن الإسلام فرض على أتباعه الجهاد (أو الحرب المقدسة كما سمَّاه)، وهو لون من استخدام العنف في مواجهة الأعداء، وليس كالمسيحية التي تقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر [١]!

الثالث: أن الإسلام لا يرفض أن يدخل فيه الإنسان مكرهاً،

---

(١) انظر: إنجيل متَّى الفقرات (٣٨ - ٤٣)، وإنجيل لوقا (٦/ ٢٩، ٣٠).

تحت بارقة السيف، ولهذا أمر محمد بنشر دينه بالسيف، أما آية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فقد كانت حين كان محمد ضعيفا، وتحت سلطان غيره من المشركين.

وهذه الأمور وغيرها من الشبهات التي تثار دائما، وخصوصا من الغربيين - ومنهم بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر - لتشويه صورة الإسلام، وإظهاره بأنه دين العنف والحرب، وأنه عدو السلام، وأنه يتعطَّش للدماء، وأحب شيء إلى أبنائه قتل البشر وإكراههم على الدخول في الإسلام.

وهذه - والله - فرية ما فيها مرية، وكذب صريح على هذا الدين المظلوم المفترى عليه.

كما أنها كلها أباطيل تكذبها الحقائق العلمية التي لا ريب فيها، وسنرد عليها جميعا في الصفحات التالية.

وسأضطر أن أقتطف من كتابي الكبير الذي أقوم بإعداده منذ سنوات في (فقه الجهاد) بعض الفقرات للحاجة إليها الآن وإلى معرفتها، وإن كان هذا لا يغني عن قراءة كتاب (فقه الجهاد) كله، حينما ينشر، وأرجو أن يكون قريباً إن شاء الله.

* * *

أولا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة القرآن

دعوة الإسلام إلى الرفق وكراهيته للعنف:

ومن اللازم هنا: أن نبيِّن أن الإسلام - على خلاف ما يتصوَّره أو يصوِّره بعض الناس - يدعو إلى الرفق وكراهية العنف، ويحرض على الرحمة، ويذم القسوة، كما نرى ذلك بينا جليا كل الجلاء في أحكامه وتعاملاته، وفي نصوص قرآنه وسنته، وقد ذم القرآن اليهود بقسوة قلوبهم ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾ [المائدة: ١٣] ويمدح الله رسوله فيقول: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وأحاديث الرسول الكريم تحض على الرفق، وتنفر من العنف، فقد قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله" (١)، وقال: "ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام=

من شيء إلا شانه" (١)، وقال: "من حُرم الرفق فقد حُرم الخير كله"(٢)، وقال: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف"(٣).

وقد جعل القرآن الكريم عنوان رسالة محمد (الرحمة) بل حصرها فيها، حين قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وعبَّر محمد ﷺ عن نفسه فقال: "إنما أنا رحمة مهداة"(٤).

وقد جَلَّيت هذا المعنى ودللت عليه في الفصل التاسع من كتابي (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) تحت عنوان: (من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة).

= (٢١٦٥)، وأحمد في المسند (٢٤٠٩٠)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٨٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠١٤٢)، عن عائشة.

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٩٤)، و أحمد في المسند (٢٥٧٠٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٧٨)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٢)، و ابن ماجه في الأدب (٣٦٧٧)، عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٩٣)، عن عائشة.

(٤) رواه الحاكم (١/٣٥)، وصححه ووافقه الذهبي، والترمذي في العلل (١/٣٦٩)، والبيهقي في الشعب (١٤٤٦)، عن أبي هريرة، ورواه ابن سعد (١/١٩٢)، والبيهقي في السنن مرسلا عن أبي صالح. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٥).

ونشرت كتابا موجزاً بعنوان (الإسلام والعنف) كان أصله بحثا قدمته في أحد المؤتمرات بالدوحة حول الموضوع.

وقد فندت شبهات الذين جهلوا هذا الدين العظيم، واتهموه بأنه يحمل بذور العنف، حتى في عقائده ذاتها، مروجين أن (الإله) في الإسلام هو إله شدة وجبروت، لا إله محبة ورحمة كما في المسيحية!! [1]

وذكرت أن المسلم يبدأ طعامه وشرابه وأعماله كلها بالبسملة أي يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم).

ويقرأ الفاتحة كل يوم -- على الأقل - أكثر من سبع عشر مرة، وفيها: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾، في أولها، ثم يقرأ:

---

(١) رددت هذا المعنى بمجلة (العالم الإسلامي) التي يصدرها المنصرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فتقول ما ترجمته: (إن إله الإسلام متكبر جبار، مترفع عن البشرية، يطلب أن يسير العابد نحوه! بينما إله المسيحية عطوف متواضع، يتودد للناس، فيظهر في صورة بشر، وذلك هو الإله الابن! فعقيدة التثليث في المسيحية قربت الإنسان من الإله ... أما عقيدة التوحيد، فباعدت بين الإنسان والإله!!) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي صـ ٥٦، ٥٧ طبعة دار الفكر في بيروت. فانظر: ماذا يفعل الهوى والتعصب والتقليد الأعمى بالناس؟! فجعل الشرك - ومنه التثليث - يقرب الإنسان من الإله، وجعل التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وجميع الأنبياء يباعد بين الإنسان والإله! وليس هناك شيء يقرب من الإنسان وربه مثل التوحيد، الذي يزيل كل الوسائط المفتعلة، ويفتح الطريق مباشرة إلى الله.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

[الفاتحة : ١–٣]

واسم (الجبار) لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة، في أواخر الحشر، وهو سبحانه جبار على الطغاة والفراعنة والمفسدين في الأرض، المتكبرين على خلق الله. وهؤلاء لا يؤدبهم إلا المتكبر الجبار، وهو مع تكبره وجبروته لا يتخلى عن رحمانيته ورحمته.

وهو كذلك (قهار) لهم لا يعجزه أمرهم، بل يحبط مكرهم، ويكفي عباده شرهم، ويجزيهم بسوء أعمالهم وبغيهم على خلقه. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [يونس : ٤٤] .

ومن أسمائه التي يجهلها هؤلاء أوتجاهلوها : الودود، اللطيف، القريب، المجيب، المقيت، المغيث، الرزاق، الفتاح، الوهاب، المحسن، الهادي، النور، العفو، الغفور، الشكور، الحليم، التواب، الولي، الحميد، المجير، النصير، إلى آخر ما يعرفه المسلمون من الأسماء الحسنى؛ التي يُمتدح الله بها، ويدعو المؤمنون أن يدعوه بها ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾

[الأعراف : ١٨٠]

دعوة الإسلام إلى السلم وكراهية الحرب :

وكما دَعَا الإسلام إلى الرفق، وحض عليه، ورغب فيه : نراه كذلك يرغِّب في السلام، ويحرص عليه، ويدعو إليه، ويعتبره

هدفا أصيلا لدعوته، كما يتجلى ذلك في تعاليمه وأحكامه وآدابه.

وهو أيضا يكره الحرب، وينفر منها، ويحرص على أن يتفاداها ما استطاع، وإذا وقعت حاول أن يضيِّق دائرتها، وأن يقلِّل خسائرها، ويخفِّف من آثارها، ما وجد إلى ذلك سبيلا.

الإسلام والسلام من مادة واحدة:

فالإسلام والسلام - أو السلم - من الناحية اللغوية مشتقان من مادة واحدة، هي: (س ل م)، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [البقرة:٢٠٨]، وقد فسرت كلمة ﴿**السِّلْمِ**﴾ في الآية بـ(السلام) المقابل للحرب، كما يفيده ظاهرها، وبهذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يدخلوا في السلام جميعا، ولا يعرضوا عنه إذا دُعوا إليه. وفسرت أيضا كلمة ﴿**السِّلْمِ**﴾ بـ(الإسلام) أيْ ادخلوا في شُعَب الإسلام كافة: عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته، فتدخلوا بذلك في السلم الحقيقي، السلام مع أنفسكم، ومع أُسركم، ومع مجتمعاتكم، ومع الناس كافة.

إشاعة كلمة السلام في المجتمع وجعله تحية الإسلام:

ومن روائع التوجيه والتربية هنا: أن الإسلام يُحبِّب إلى المسلم كلمة السلام، ومفهوم السلام بأساليب شتى، لا توجد في دين آخر، أو أيديولوجية أخرى.

فالسلام من أسماء الله تعالى الحسنى، التي يدعو المسلم ربه بها، ويتقرب إلى الله بذكرها، كما قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والمسلم يقرأ في القرآن: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ** ﴾ [الحشر: ٢٣].

والمسلمون هم الأمة الوحيدة التي يوجد فيها اسم (عبد السلام) أي عبد الله.

والجنة التي يتوق إليها كل مؤمن، ويعمل حثيثا ليكون من أهلها، تسمى (دار السلام)، كما قال تعالى: ﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وأكثر ما يسمع في هذه الجنة كلمة السلام، فهي تحية المؤمنين في الآخرة: ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، ﴿ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً** ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وكما أن السلام تحية المؤمنين في الآخرة، فهو تحيتهم في الدنيا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. و(إفشاء السلام) من أفضل خصال الإسلام. وقد جاء في جملة أحاديث: «أفشوا السلام» [١].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد في المسند (٩٠٨٤)، =

والمسلم إذا جلس في صلاته للتشهد: يلقي السلام على نبيه محمد، وعلى نفسه وأمته: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" [(١)]. ثم يخرج من الصلاة: بإلقاء تحية السلام عن يمينه وعن يساره، إيذانا بأنه كان في الصلاة في حالة سلام، فإذا انصرف من الصلاة استقبل الناس والحياة من حوله بالسلام. فهو سلام في عبادته، سلام في معاملته.

المسلم لا يتمنى الحرب ويسأل الله العافية:

والمسلم لا يتمنى الحرب ولا يحرص عليها لذاتها، بل يتمنى السلام والعافية، ولكن إذا فُرضت عليه الحرب في سبيل الله خاضها بقوة وجسارة وصبر، مُوقنا أن له إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

يقول تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويقول النبي ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن أبي أوفى:

= والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨)، عن أبي هريرة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، وأحمد في المسند (٣٦٢٢)، وأبو داود في الصلاة (٩٦٨)، والترمذي في الصلاة (٢٨٩)، والنسائي في الافتتاح (١١٧٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٩٩)، عن ابن مسعود.

"لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" (١).

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ :

والقرآن يُعقِّب على غزوة الأحزاب، التي هاجمت جموع المشركين فيها من قريش وغطفان وأحابيشهما: الرسول والمؤمنين معه في عُقر دارهم بالمدينة بأعداد هائلة، يبتغون إبادتهم وتصفيتهم، جسديا وماديا، حتى لا تبقى لهم باقية؛ لولا أن عين الله لم تغفل عن النبي ﷺ وأصحابه، ويده سبحانه لم تتركهم وحدهم، ولا سيما أن يهود بني قريظة انضموا إلى المهاجمين، ونقضوا عهد الرسول في أحلك الأوقات وأحوجها إلى مساعدتهم: قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾** [الأحزاب: ٩-١١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأحمد في المسند (١٩١١٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

والمقصود هنا: ما عقَّب به القرآن على هذه الغزوة حين قال: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فانظر إلى هذه الكلمة المُعبِّرة: ﴿ **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** ﴾، يذكرها تعالى في معرض الإنعام والامتنان على النبي والمؤمنين: أن المعركة انتهت بغير قتال، وبغير دماء، فقد كفى الله المؤمنين القتال. وهي نعمة جليلة تستحق الشكر لله تعالى. ولا يتصور أن يقال: هذا دينٌ يتعطش للقتال، وإراقة الدماء.

القرآن يسمي صلح الحديبية ﴿ فَتْحاً مُبِيناً ﴾:

وفي غزوة الحديبية التي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الموت، أي القتال حتى الموت، وعدم الاستسلام بحال، ثم شاء الله تعالى أن يتفاوض المسلمون والمشركون، وأن ينتهوا إلى الصلح المعروف بـ (صلح الحديبية) والذي يتضمن هدنة مدتها عشر سنوات، تُغمد فيها السيوف، ويكف كل فريق يده عن الآخر: ينزل هنا قرآن يُتلى، يسمي هذه الهدنة أو هذا الصلح: ﴿ **فَتْحاً مُبِيناً** ﴾، وتنزل في ذلك سورة تسمى سورة (الفتح) تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً** ﴾ [الفتح: ١]، ويسأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ: أفتح هو يا رسول الله؟ فيقول: "نعم هو فتح"(١). استبعدوا أن يكون فتح بغير حرب،

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٤٧٠)، وقال محققوه: إسناده =

ولكن الله تعالى سمَّاه فتحا، بل فتحا مبينا، وامتنَّ به على رسوله عليه الصلاة والسلام، وأنزل في ذلك سورة سميت (سورة الفتح).

وقال تعالى في هذه السورة مُمتنًّا: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفتح: ٢٤]، فهو هنا لا يمتن بكف أيدي المشركين عن المؤمنين فقط، بل يمتن أيضا بكف أيدي المؤمنين عن المشركين أيضا: ﴿ **وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ** ﴾، فهذا هو التعبير الحقيقي عن حب السلام الذي يسود الطرفين معا.

وإذا اضطر المسلمون أن يخوضوا معركة فُرضت عليهم، فإنهم مأمورون أن يُقلِّلوا من خسائرها البشرية والمادية ما أمكنهم، فلا يقتلون إلا مَن يقاتل: لا يقتلون امرأة ولا طفلا، ولا شيخا فانيا، ولا راهبا ولا فلاحا ولا تاجرا، إنما يقتلون مَن يقاتل فحسب. كما أنهم لا يقطعون شجرا، ولا يهدمون بناء، ولا يفسدون في الأرض، ولا يقومون إلا بما تقتضيه ضرورة الحرب، وللضرورات أحكامها، وهي تقدر بقدرها. فقد قيَّد القرآن ارتكاب الضرورة بعدم البغي والعدوان، حين قال بعد تحريم

= ضعيف، يعقوب بن مجمع بن جارية والد مجمع - وإن كان حسن الحديث - انفرد به، وأبو داود في الجهاد (٢٣٥٩)، والطبراني في الأوسط (٤ / ١٢٠)، وفي الكبير (١٩ / ٤٤٥)، عن مجمع بن جارية، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٥٨٧).

أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[البقرة: ١٧٣]

الجنوح للسلم إذا جنح العدو إليها:

ومع هذا كله، يأمر القرآن المسلمين أن يستجيبوا لدعوة السلم إذا دُعُوا لها، ولو بعد وقوع الحرب، واشتعال وقودها، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢].

حتى مع احتمال إرادة الخداع منهم، لا ينبغي أن تُرفض دعوة السلم بإطلاق، وإنما يجب أن نجنح لها كما جنحوا. على أن يتم ذلك بشروطه وضوابطه الشرعية.

فليس من الجنوح للسلم بحال: أن تغتصب أرضي بالسيف، ثم تفاوضني على أن أترك لك بالصلح ما أخذته مني بالسيف، وتسمِّي ذلك جنوحا للسلم، فهذا أبعد ما يكون عن الجنوح للسلم، كما يفعل ذلك الصهاينة اليوم [1]! والشرط أن يتوافر من العدو الجنوح للسلم، وأن تظهر دلائل ذلك في مواقفه.

---

(١) راجع فتوانا بتحريم الصلح مع إسرائيل والرد على القائلين بذلك، في كتابنا: فتاوى معاصرة جـ٣ صـ٤٦٥ وما بعدها.

وهذا ما طبقه الرسول ﷺ بالفعل، حين جنحت قريش إلى السلم يوم الحديبية، ولم يكن ذلك عن ضعف منه، ولا تقاعس من أصحابه، فقد بايعوه على الموت، ولكنه جنح للسلم، حين لمس من خصومه الجنوح إليها، فكان الصلح الشهير، والصلح خير. وقد تحقق من ورائه خير كثير لدعوة الإسلام، ودخل الكثيرون من القرشيين في دين الله، من أمثال: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وغيرهما.

كراهة التسمية بـ (حرب):

ومن دلائل حرص الإسلام على السلم، ونفوره من الحرب: هذا الحديث النبوي الذي يقول: "أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدق الأسماء: حارث وهمام، وأقبح الأسماء: حرب ومرة"(١).

حتى لفظة (حرب) من المفردات التي يكره الإسلام تكرارها على ألسنة الناس، ولهذا يكرهها محمد ﷺ، ويراها أقبح اسم يُسمَّى به إنسان، وقد كان العرب في الجاهلية يسمون أبناءهم بـ (حرب) مثل حرب بن أمية، والد (أبي سفيان بن حرب) وغيره.

وروى الإمام مالك في (الموطأ) عن يحيى بن سعيد

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٠٣٢)، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب، فقد تفرد بالرواية عنه محمد بن مهاجر وهو الأنصاري، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والبيهقي في الكبرى كتاب الضحايا (٩/٣٠٦)، عن أبي وهب الجشمي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٠).

– مرسلا – أن رسول الله قال لِلَقْحَةٍ[1] (ناقة) تُحلب: "مَن يحلب هذه؟" . فقام رجل فقال: "ما اسمك؟" . قال: مرّة، قال: "اجلس" . ثم قال: "مَن يحلب هذه؟" . فقام رجل، فقال: "ما اسمك؟" . قال: حرب . قال: "اجلس" . ثم قال: "مَن يحلب هذه؟" . فقام رجل، فقال: "ما اسمك؟" . قال: يعيش! فقال له رسول الله ﷺ: "احلب"[2] .

وروى الإمام أحمد في مسنده، وروى البخاري في الأدب المفرد، وغيرهما عن علي رضي الله عنه قال: لما ولد الحسن سمَّيتُه حربا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أروني ابني ما سمَّيتموه؟" . قال: قلت: حربا . قال: "بل هو حسن" . فلما ولد الحسين سمَّيتُه حربا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أروني ابني ما سميتموه؟" . قال: قلت: حربا . قال: "بل هو حسين" . فلما ولد الثالث سمَّيتُه حربا، فجاء النبي ﷺ فقال: "أروني ابني ما سميتموه؟" . قلت: حربا . قال: "بل هو محسن"[3] .

---

(١) اللِّقْحَة: هي الناقة الحلوب القريبة العهد بالولادة.

(٢) رواه مالك في الموطأ كتاب الاستئذان (١٧٥٢٠)، وقال محمد فؤاد عبد الباقي: مرسل أو معضل، وصله ابن عبد البر من طريق ابن وهب عن ابن لهيعة إلى يعيش الغفاري، والطبراني في الكبير (٢٢ / ٢٧٧) موصولا، وابن أبي الدنيا في إكرام الضيف (٦٥) موصولا، عن يعيش الغفاري، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وإسناده حسن (٨ / ٩٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (٧٦٩)، وقال محققوه: إسناده =

وفي إِحدى الروايات: أن عليا قال: كنت أحب أن أَكْتَنَى بـ (أبي حرب)[1].

فهل يقف هذا الموقف، أو يوجه هذا التوجيه: إنسان متعطش للدماء، عاشق للحروب، كما تُصوِّره أقلام المتعصبين من المُنصِّرين والمُستشرقين وأمثالهم، ممَّن يقولون على الله وعلى رسله الكذب وهم يعلمون؟!

ثلث العام هدنة إجبارية:

ومن حرص الإسلام على السلم: أنه فرض على المسلمين هدنة إجبارية يمتنعون فيها عن القتال لمدة أربعة أشهر، أي ثلث العام، وهي الأشهر المعروفة بـ (الأشهر الحرم) وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد، أي ثلاثة

=حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير هانئ بن هانئ، فقد روى له أصحاب السنن، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، والبزار في المسند (٢/٣١٤)، وابن حبان في مناقب الصحابة (١٥/٤٠٩)، والطبراني في الكبير (٣/٩٦)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/١٨٠)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الوقف (٦/١٦٦)، عن علي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح، غير هانئ بن هانئ وهو ثقة (٨/١٠٢).

(١) رواه الطيالسي في المسند (١/١٩)، والبزار في المسند (٢/٣١٥)، والطبراني في الكبير (٣/٧٩)، عن علي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني بنحوه بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح (٨/١٠٢)، ولم يذكر فيها الولد الثالث.

متتابعة، وواحد منفرد عنها. قال تعالى في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ**﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ**﴾ [المائدة: ٩٧]. وسياق الآية يجعل الشهر الحرام كالكعبة قياما للناس، فله من الثبوت ما للبيت الحرام، هذا في المكان، وهذا في الزمان.

وقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ...﴾ [البقرة: ٢١٧]. فأقرَّ بأن القتال في الشهر الحرام ذنب كبير، وإن كان المشركون قد ارتكبوا ما هو أكبر منه عند الله.

ولكن إذا قوتل المسلمون في الشهر الحرام قاتلوا فيه ردا للعدوان، وتأديبا للمعتدين، حتى لا يجترئوا على المسلمين، مستغلين تعظيمهم للشهر الحرام، يقول تعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقد ذهب الأئمة الأربعة والجمهور إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ. وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير

منسوخ. وكان عطاء يحلف بالله: ما يحل القتال في الشهر الحرام، ولا نسخ تحريمه شيء!

وقد ردَّ العلامة ابن القيم على كل الأدلة التي استدل بها مَن قال بالنسخ، مُبيِّنا أن كل ما قيل فيه: إن النبي ﷺ قد قاتل في الشهر الحرام، أنه كان قتال دفاع لما بدأه العدو من عدوان على المسلمين. قال ابن القيم: ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء.

وذكر ابن القيم آية [البقرة:٢١٧]، ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ...**﴾، وآية [المائدة:٢]، ﴿**لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ**﴾، ثم قال: فهاتان آيتان مدنيتان، بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام. وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكمهما، ولا أجمعت الأمة على نسخه. ومَن استدل على نسخه بقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**﴾ [التوبة:٣٦]، ونحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه. ومن استدل بأن النبي ﷺ بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذي القعدة، فقد استدل بغير دليل، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام[١] اهـ.

---

(١) زاد المعاد (٣/٣٣٩-٣٤١). طبعة الرسالة. بيروت.

الحج تدريب للمسلم على السلام:

ومن عناية الإسلام بالسلام: أنه فرض على كل مسلم في العمر مرة عبادة خاصة، وهي حج البيت الحرام، وهي عبادة يتدرَّب المسلم فيها على السلام، فهي تتم عادة في الشهر الحرام في ذي الحجة، وفي البلد الحرام مكة المكرمة، وفي حالة الإحرام، فتحوطه حرمة الزمان، وحرمة المكان، وحرمة الحال، حال الإحرام، الذي يحظر عليه فيه كل قتل حتى قتل الصيد، كما قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ** ... ﴾ [المائدة: ٩٥].

فالمسلم في هذه الرحلة: سلام لكل مَن حوله، وكل ما حوله، حتى الأشجار والحشائش يحرم عليه أن يقطعها.

وكل مسلم عليه أن يقوم برحلة السلام هذه مرة في عمره فرضا من الله، وله أن يحج ويعتمر تطوعا ما يسَّر الله له ذلك، ابتغاء مرضاة الله.

* * *

ثانيا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة التوراة

ومن أراد أن يعرف فضل ما جاء به الإسلام من إصلاح وتجديد وتهذيب في أحكام الجهاد والقتال، وإقرار السلام في الأرض، بالنسبة لما كان عليه الوضع في الشرائع القديمة، والأمم السابقة، فعليه أن ينظر - ولو نظرة سريعة عاجلة - إلى ما اشتملت عليه (التوراة) الحالية، التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعا، على أنها الكتاب الإلهي الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وأعلن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: أنه ما جاء لينقض الناموس (الذي جاء به موسى)، بل جاء ليتممه [1]. عليه أن ينظر بإنصاف ليقارن ويوازن: ماذا جاءت به التوراة من أحكام في شأن الحرب والسلام، بالمقارنة بما جاء به الإسلام والقرآن!

ولا أدري أقرأ الغربيون - المسيحيون في جملتهم - الذين يتهمون الإسلام بأنه (دين السيف)، والذين يزعمون أنهم

---

(١) في إنجيل متى: الإصحاح (٥): (لا تظنوا أني جئت لأُلغي الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لأُلغي، بل لأُكمِّل) الفقرة (١٧)، وانظر: إنجيل مرقص: ٩ / ٥٠، لوقا: ١٤ / ٤٣، ٣٥ .

يؤمنون بـ (الكتاب المقدس) ومنه التوراة : هذه النصوص التي سأوردها أقرأوها أم لم يقرأوها؟ وإذا قرأوها فهل وَعَوْها أو لم يعوها؟ ومن هؤلاء البابا الحالي بنديكت السادس عشر.

والآن أود أن نقف قليلا عند ما تقوله التوراة - التي نعتقد نحن المسلمين: أنها حُرِّفت وبُدِّلت لفظيا ومعنويا - والتي يؤمن بقدسيتها وإلهيتها : اليهود والمسيحيون جميعا، ومنهم المبشرون والميستشرقون المتحاملون، الذين شنوا الغارة على شريعة الجهاد في القرآن، وفي سنة محمد عليه الصلاة والسلام، وبالمقارنة والموازنة تتبيَّن الحقائق، وبضدِّها تتميَّز الأشياء.

فأنصت أخي القارئ المنصف لما تقوله التوراة في أمر الحرب والقتال.

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة في التوراة :

تقول التوراة في (سفر تثنية الاشتراع) في (الإصحاح العشرين) تحت عنوان (شرائع حصار وفتح المدن البعيدة) - وأعتقد أن هذا العنوان من وضع ناشري التوراة - في الفقرة العاشرة وما بعدها :

(وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولا . فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، **فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم**. **وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم، فاقتلوا**

جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا). انتهى.

هذا أمر التوراة الصارم لبني إسرائيل، أو لليهود المؤمنين بشريعة موسى في شأن حصار المدن البعيدة وفتحها: إذا أجابت دعوة السلم والصلح، فجميع أهلها عبيد لهم بلا استثناء! وإذا لم تُسلِّم لهم فليحاربوا، وإذا سقطت في أيديهم، فعليهم أن (يقتلوا جميع ذكورها بحد السيف)، هكذا أمرهم (الرب الإله). ولم تقبل شريعة التوراة من هؤلاء بديلا لقتلهم بحد السيف: أن يدخلوا في دين اليهودية مثلا، أو يدفعوا لهم جزية، أو غير ذلك. ولم يستثن أمر (الرب الإله) أحدا من الذكور: لا شيخا كبيرا، ولا طفلا صغيرا.

وقد قال القرآن هنا: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ [محمد: ٤]، فاكتفى القرآن في قتال الأعداء: أن يُثخنوهم، أي يُضعفوهم، وفي هذه الحالة عليهم أن يشدوا الوَثَاق. أي: يكفّوا عن القتل، ويأسروا بدل أن يقتلوا.

وقال القرآن أيضا: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٢٩]، فجعل للأعداء المحاربين فرصة تُنجِّيهم من القتل، ومن الدخول في الإسلام جبرا، وهي إعطاء الجزية ﴿ **عَن يَدٍ** ﴾: أي عن قدرة، وهي مبلغ زهيد في مقابل التكفُّل بحمايتهم والدفاع عنهم. وهذه الجزية يدفعها القادرون على القتال، والقادرون على الدفع، فلا تدفعها النساء ولا الصبيان ولا العَجَزة ولا العميان، ولا الرهبان، وأمثالهم، ولا يدفعها الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم من العيش، بل هؤلاء تكفلهم الدولة الإسلامية، كما رأينا ذلك في عهد عمر بن الخطاب[١]. وهذا حكم مجمَع عليه في مذاهب الفقه الإسلامي كافة[٢].

---

(١) انظر كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) صـ ١١٠، ١١١، وفيه أن خالد بن الوليد القائد المسلم المنتصر صالح أهل الحيرة من النصارى، وكتب لهم معاهدة جاء فيها هذا النص الصريح: (وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه ينصرفون عنه: طرحت عنه جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام). الخراج لأبي يوسف صـ ١٤٤ ط السلفية الثانية.

(٢) انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٩ / ٢٨٩) والمغني لابن قدامة.

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد :

أما شعـوب المنطقـة التـي يطلـق عليهـا (أرض الميعـاد) – يعنون أرض فلسطين – فتقـول التـوراة في شأنهـا : (أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثا، فلا تَسْتَبْقوا فيها نَسَمَة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثِّيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمركم الرب إلهكم، لكي لا يعلِّموكم رجاستهم التي مارسوها في عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم)[1] انتهى .

هذه الشعـوب الستـة، يجب أن تباد إبادة تامة، دون أن يُبدأوا بالدعـوة، أو تُقبل منهـم جـزية، أو يُعقد معهـم صلح أو هدنة . ليس هناك إلا خيـار السيف، والسيف وحده . والموت والدمار الكامل هما نصيب هذه الشعوب المسكينة، ولا ذنب لها إلا أنها سكنت فلسطين أو ما سمَّوه (أرض الميعاد) قبلهم !

ويعلق شراح التوراة على هذه الفقرة فيقولون : (كيف يمكن لإله رحيم أن يأمر بإهلاك كل المراكز الآهلة بالسكان؟ لقد فعل ذلك لحماية بني إسرائيل من عبادة الأوثان، التي كانت، ولا بد، ستجلب الخراب عليهم (٢٠ : ١٨) وفي الحقيقة، لأن بني إسرائيل لم يقضوا تماما على هذه الشعوب الشريرة كما أمرهم

---

(١) انظر: الكتاب المقدس (التوراة) سفر التثنية : الإصحاح العشرين (١٠–١٨) ص٣٩٢، ٣٩٣ .

الله، تعرضوا باستمرار لاضطهادهم، وإلى الكثير من سفك الدماء والتخريب، أكثر مما لو كانوا أطاعوا توجيهات الله قبل كل شيء)!! اهـ.

وهكذا ترى هؤلاء الشراح برروا هذه الإبادة الكاملة لهذه الشعوب؛ بأمر الرب الإله! بل أظهروا الأسف على نجاة الشعوب التي لم يبدها سيف إسرائيل!

فأين ما جاءت به التوراة هنا مما جاء به القرآن من أحكام؟!

إن البلاد القريبة – التي يطلق الشراح عليها (أرض الموعد) – (لا تُستبقى فيها نَسَمَة حية!) يعني: الإبادة الكاملة، الاستئصال لأهل هذه البلاد!

فلا تستبعد ما صنعه الأوربيون النصارى حين نزلوا بأرض أمريكا الشمالية، من محاولة استئصال الهنود الحمر، أهل البلاد الأصليين!! ولا تستغرب ما صنعه البريطانيون وغيرهم حينما ذهبوا إلى (أستراليا) واكتشفوها، وقضوا على سكانها الأصليين. وقد استخدم هؤلاء وأولئك في إبادة السكان الأصليين وسائل وأساليب لا تمت إلى الأخلاق، ولا إلى الإنسانية بصلة، ووصفها بـ (الوحشية) ظلم كبير للوحوش، لأن الوحوش لا تقتل من الحيوانات الأخرى إلا ما تحتاج إليه لأكلها. فإذا شبعت كفَّت. وهؤلاء لا يشبعون من قتل، ولا يرتوون من دماء، وإن سالت مدرارا.

إن فكرة استئصال الأمم والشعوب والأخرى وإبادتها: (فكرة توراتيـة) أصيلة توارثها قراء التوراة من اليهود والنصارى. وهي فكرة مرفوضة تماما في الإسلام، ولقد رأينا القرآن الكريم كيف شدَّد النكير على فرعون في ظلمه لبني إسرائيل، لأنه أراد إبادتهم بطريق بطيء، حيث أمر بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم. ومعنى تذبيح الذكور من المواليد وتقتيلهم: أن يباد الجنس بعد عقود من الزمان. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٤].

وهي فكرة مرفوضة تماما في الإسلام، لا بالنسبة إلى (الأمم البشرية) فحسب، بل بالنسبة إلى (الأمم الحيوانية) أيضا. فلم يُجز الإسلام إبادة نوع أو أمة من العجماوات لسبب من الأسباب، وقال في ذلك رسول الإسلام ﷺ: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها"(١)، أي بإبادتها وتخليص الناس من أذاها.

ولكن عليه الصلاة والسلام نظر إلى الأمر نظرة أعمق، فرأى أن هذه الكلاب - بتعبير القرآن - (أمة) لها خصائصها وصفاتها

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٧٨٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٨٦)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٨٠)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، عن عبد الله بن مُغَفَّل، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٢١).

التي ميزتها عن غيرها من الأجناس التي خلقها الله، وإنما خلقها لحكمة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وبهذه النظرة المتسامية سبق الإسلام بنحو أربعة عشر قرنا: ما تنادت به البشرية اليوم من ضرورة الحفاظ على الأجناس الحية من الانقراض، وهو ما يسمونه (مبدأ نوح) عليه السلام[١].

فانظر إلى هذا الأفق الرفيع الذي ارتقى الإسلام بالبشرية إليه، في المحافظة على أجناس الدواب والطيور وغيرها، واعتبارها (أمما أمثالنا) وقارن بينه وبين ذلك الحضيض الذي انحدر إليه الغربيون؛ الذين رضعوا فكرة التوراة الاستئصالية مع لبان أمهاتهم. فاقترفوا من جرائم الإبادة ما يندى له جبين التاريخ، ولقد اتفق في ذلك النصارى واليهود جميعاً.

وقد رأينا بأعيننا ماذا فعلت العصابات اليهودية الصهيونية بأهل فلسطين، وشعب فلسطين؟ لقد قاموا بجملة مذابح بشرية رهيبة، من قتل النساء والأطفال والشيوخ والمدنيين العزل، بلا هوادة ولا رحمة، ولا مراعاة لأي اعتبار إنساني، كما فعلوا في (دير ياسين) وغيرها، حتى بقروا بطون الحوامل، وأخرجوا الأجنة

---

(١) انظر: كتابنا: (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) فصل (المحافظة على الموارد) صـ٩١ - ٩٥.

من أحشائها، وعبثوا بها بسنان أسلحتهم، وهم يتضاحكون! وقتلوا الابن أمام عين أبيه، وعين أمه الوالهة! وذبحوا الأب والأم أمام أعين أبنائهما وبناتهما، وبهذه الوحشية أدخلوا الرعب في قلوب الفلسطينيين، ففروا من ديارهم مذعورين، وتركوها لهؤلاء السفاحين الإرهابيين.

لقد كان هؤلاء المجرمون السفاحون يطبقون شريعة التوراة التي لُقِّنوها: ألا تدعوا فيها نَسَمَة حية!!

هذه هي شريعة التوراة بالنسبة لهذه الشعوب: دمِّروها عن بكرة أبيها! لا تُبقوا فيها نَسَمَة حية! هكذا أمر الرب الإله موسى وقومه وأتباعه: أن يفعلوا بهذه المدن وأهلها حين تقع في أيديهم، وقد أُمروا أمرا ملزما: أن يبدأوا بقتالهم وقتلهم. لا يدعونهم إلى دين يعتنقونه، أو يقبلون منهم جزية يدفعونها، فليس لهم خيار إلا السيف.

فأين هذا مما جاء به القرآن من قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

وأين هذا مما جاء به القرآن - حتى بعد ما سموه (آية السيف) من سورة التوبة - من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ**

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة :٦] ؟

وأين هذا من قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الآية : ٦١ ، ٦٢]

إن من يقرأ ما جاء في نصوص الكتابين (التوراه والقرآن) عن السلام والحرب : لا يسعه إلا أن يقرأ قول البوصيري رحمه الله :

اللـــه أكبـر ! إن دين محمـــد وكتابه : أقوى وأقوم قيـــلا !
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا !

فما قول البابا بنديكت فيما أريناه من نصوص التوراة : هل ينكرها؟ كيف وهو يؤمن بقول المسيح : ما جئت لأنقض الناموس (التوراة) ؟

وأين يجد البابا (العنف حقا) ؟ أيجده في نصوص التوراة التي جاء بها موسى في زعمهم، أم يجده في نصوص القرآن؟

نصوص مُعبِّرة عن العنف البالغ من أسفار القوم :

وأضيف إلى هذه الفقرات التي نقلناها من التوراة، فقرات أخرى من التوراة وملحقاتها من أسفار العهد القديم، نقلها العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه الشهير : (إظهار الحق) :

١ – في الباب الثالث والعشرين من (سفر الخروج) هكذا: (٢٣) وينطلق ملاكي أمامك، فيدخلونك على الأموريين والحيثانيين والفرزانيين والكنعانيين والحوايين واليابوسيين الذين أنا أخرجهم (٢٤) لا تسجدن لآلهتهم ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم، ولكن خربهم تخريبا، واكسر أوثانهم).

٢ – في الباب الرابع والثلاثين من (سفر الخروج) في حق الأمم الست هكذا: (١٢) فاحذر أن تعاهد مطلقا سكان تلك الأرض الذين تأتيهم لئلا يكونوا لك عثرة (١٣) ولكن اهدم مذابحهم، وكسر أصنامهم، واقطع أنساكهم).

٣ – في الباب الثالث والثلاثين من (سفر العدد): (٥١) مُر بني إسرائيل وقل لهم: إذا عبرتم الأردن وأنتم داخلون أرض كنعان (٢٥) فأبيدوا كل سكان تلك الأرض، واسحقوا مساجدهم، واكسروا أصنامهم المنحوتة جميعها، واعقروا مذابحها كلها (٥٥) ثم أنتم إن لم تبيدوا سكان الأرض، فالذين يبقون منهم، يكونون لكم كأوتاد في أعينكم، ورماح في أجنابكم، ويشقون عليكم في الأرض التي تسكنونها (٥٦) وما كنت عزمت أني أفعل بهم سأفعله بكم).

٤ – فى الباب السابع من سفر التثنية هكذا: (١) إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي تدخل لترثها، وتبيد الشعوب الكثيرة من قدامك: الحيثي والجرحيثاني والأموراني والكنعاني والفرزاني والحواني واليبوساني، سبعة أمم أكثر منكم عددا وأشد منكم (٢) وسلمهم الرب إلهك بيدك، فاضربهم حتى إنك

لا تبقي منهم بقية، فلا تواثقهم ميثاقا ولا ترحمهم (٣) ولكن فافعلوا بهم هكذا: خربوا مذابحهم، وكسروا أصنامهم، وقطعوا مناسكهم، وأوقدوا أوثانهم).

قال صاحب (إظهار الحق):

فعلم من هذه العبارات: أن الله أمر بإهلاك كل ذي حياة من الأمم السبع، وعدم الشفقة عليهم، وعدم المعاهدة معهم، وتخريب مذابحهم، وكسر أصنامهم، وإحراق أوثانهم، وقطع مناسكهم، وشدَّد في إهلاكهم تشديدا بليغا، وقال: إن لم تهلكوهم أفعل بكم ما كنت عزمت أن أفعله بهم! ووقع في حق هذه الأمم السبعة (أنهم أكثر منكم عددا وأشد منكم). وقد ثبت في الباب الأول من (سفر العدد): أن عدد بني إسرائيل الذي كانوا صالحين لمباشرة الحروب، وكانوا أبناء عشرين سنة وما فوقها، كان: ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين رجلا (٦٠٣٥٥٠)[1]، وأن اللاويين مطلقا ذكورا كانوا أو إناثا، وكذا

---

(١) ناقش العلامة ابن خلدون في مقدمته هذه الأرقام، التي ذكرتها التوراة عن أعداد بني إسرائيل، وبين بالمنطق التاريخي: أنها غير صحيحة على الإطلاق، وأنها لا تتفق مع المدة الزمنية التي قضاها بنو إسرائيل في مصر، وما أصابهم فيها من تذبيح وتقتيل. وهو تحقيق في غاية الصواب. وقد سبقه إلى شيء من ذلك: الإمام ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) (١ / ٢٦١ - ٢٦٣) فصل: تخبط كتب اليهود في عدوهم حين خروجهم من مصر. طبعة عكاظ للنشر والتوزيع، ولكن العلامة رحمة الله في (إظهار الحق) يؤاخذهم بما سجلوه في كتبهم المقدسة على أنفسهم.

إناث سائر الأسباط الإحدى عشر مطلقا، وكذا ذكورهم الذين لم يبلغوا العشرين سنة خارجون عن هذا العدد، ولو أخذنا عدد جميع بني إسرائيل، وضممنا المتروكين والمتروكات كلهم بالمعدودين، لا يكون الكل أقل من ألفي ألف وخمسمائة ألف، أعني مليونين ونصف مليون (٢٥٠٠٠٠٠)، وهذه الأمم السبعة إذا كانت أكثر منهم عددا وأشد منهم، فلا بد أن يكون عدد هذه الأمم أكثر من عددهم.

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله من التوراة والعهد القديم من المذابح البشرية التي ارتكبها أنبياء بني إسرائيل تطبيقا لأحكام التوراة: ما تقشعر منه الأبدان، وتشيب لهوله الولدان. ننقل بعضه هنا للموازنة والاعتبار.

٥ - في الباب الثاني والثلاثين من سفر الخروج في حال عبادة العجل هكذا: (٢٥) فنظر موسى عليه السلام العشب أنه صار عريانا إنما عراه هارون لعار النجاسة، وجعله عريانا بين الأعداء (٢٦) فوقف في باب المحلة، وقال: من كان من حزب الرب فليقبل إليَّ، فاجتمع إليه جميع بني لاوي (٢٧) وقال لهم: هذا ما يقول الرب إله إسرائيل: ليتقلد كل رجل منكم سيفه، فجوزوا في وسط المحلة من باب إلى باب، وارتدوا وليقتل الرجل منكم أخاه، وصاحبه، وقريبه (٢٨) فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى عليه السلام، فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل). فقتل موسى عليه السلام على عبادة العجل ثلاثة وعشرين ألفا.

٦ – وفي الباب الخامس والعشرين من سفر العدد، أن بني إسرائيل لما زنوا ببنات المؤاب، وسجدوا لآلهتهن، أمر الرب بقتلهم. فقتل موسى أربعة وعشرين ألفا منهم.

٧ – من طالع الباب الحادي والثلاثين من سفر العدد، ظهر له أن موسى عليه السلام لما أرسل اثني عشر ألف رجل مع فنيحاس بن العازار لمحاربة أهل مديان، فحاربوا وانتصروا عليهم، وقتلوا كل ذكر منهم، وخمسة ملوكهم وبلعام، وسبوا نساءهم، وأولادهم، ومواشيهم كلها، وأحرقوا القرى والدساكر والمدائن بالنار، فلما رجعوا غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال: لم استحييتم النساء؟ ثم أمر بقتل كل طفل مذكر، وكل امرأة ثيِّب، وإبقاء الأبكار، ففعلوا كما أمر، وكانت الغنيمة من الغنم: ستمائة وخمسة وسبعين ألفا، ومن البقر: اثنين وسبعين ألفا، ومن الحمير: واحدا وستين ألفا، ومن الأبكار: اثنتين وثلاثين ألفا، وكان لكل مجاهد ما نهب من غير الدواب، والإنسان، وما بين مقداره في هذا الباب. غير أن رؤساء الألوف والمئين، أعطوا الذهب لموسى والعازار: ستة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين مثقالا. وإذا كان عدد النساء الأبكار اثنتين وثلاثين ألفا، فكم يكون مقدار المقتولين من الذكور مطلقا، شيوخا كانوا أو شبانا أو صبيانا، ومن النساء الثيبات؟!

٨ – عمل يوشع عليه السلام بعد موت موسى عليه السلام بالأحكام المندرجة في التوراة، فقتل (الملايين) الكثيرة، ومن شاء فليطالع هذا في كتابه من الباب الأول إلى الباب الحادي عشر، وقد

صرَّح في الباب الثاني عشر من كتابه: أنه قتل واحدا وثلاثين سلطانا من سلاطين الكفار، وتسلط بنو إسرائيل على ممالكهم.

٩ - في الباب الخامس عشر من سفر القضاة في حال شمشون هكذا: (ووجد فكًّا، أعني: خد حمار، فمد يده وأخذه، وقتل به ألف رجل)!

١٠ - في الباب السابع والعشرين من سفر صموئيل الأول: (٨) وصعد داود ورجاله، وكانوا ينهبون أهل جاسور وجرز وعمالق، لأن هؤلاء كانوا سكان الأرض من الدهر من حد سورا حتى حد مصر (٩) وكان يخرب داود كل الأرض، ولم يكن يُبقي منهم رجلا، ولا امرأة، ويأخذ الغنم، والبقر، والحمير، والجمال والأمتعة، وكان يرجع ويأتي إلى أخيس). انظروا إلى فعل داود عليه السلام: إنه كان يخرب الأرض، وما يُبقي رجلا، ولا امرأة من أهل جاسور، وجرز وعمالق، وينهب دوابهم وأمتعتهم!

١١ - في الباب الثامن من سفر صموئيل الثاني: (٢) وضرب المؤابيين وجرهم بالحبال، وأضجعهم على الأرض، وأعد حبلين للقتل، وحبلا واحدا للاستحياء، وكان المؤابيون عبيدا لداود يؤدون إليه الخراج (٣) وضرب داود أيضا هدر عازار بن راحوب ملك صوبا ... إلخ (٥) فأتت أرام دمشق، ليعينوا هدر عازار ملك صوبا، وضرب (أي بالسيف) داود من أرام اثنين وعشرين ألف رجل). فانظروا إلى فعل داود عليه السلام بالمؤابيين، وهدر عازار، وجيشه وجيش أرام.

١٢ - الآية الثامنة عشر من الباب العاشر من سفر صموئيل الثاني هكذا: (وهرب السريانيون من بين يدي إسرائيل، وقتل داود من السريانيين سبعمائة مربك، وأربعين ألف فارس، وسوباك رئيس الجيش ضربه فمات في ذلك المكان).

١٣ - وفي الباب الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني هكذا: (١٩) فجمع داود جميع الشعب، وسار إلى راية فحارب أهلها، وفتحها (٣٠) وأخذ تاج ملكها عن رأسه، وكان وزنه قنطارا من الذهب، وكان فيه جواهر مرتفعة، ووضعوه على داود، وغنيمة القرية أخرجها كثيرة جدا (٣١) والشعب الذي كانوا فيها أخذهم ونشرهم بالمناشير، وداسهم بموارج حديد، وقطعهم بالسكاكين، وأجازهم بقمين الأجاجر، كذلك صنع بجميع قرى بني عمون، ورجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم). ونقلت هذه العبارة لفظا لفظا، عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٣١م، وسنة ١٨٤٤م. فانظروا كيف قتل داود عليه السلام بني عمون قتلا شنيعا، وأهلك جميع القرى بمثل هذا العذاب العظيم الذي لا يتصور فوقه) [١] انتهى.

هذا بعض ما نقله العلامة الشيخ رحمة الله في كتابه (إظهار الحق) من كتب القوم المقدسة، بنصوصه وحروفه، على

---

(١) انظر: كتاب إظهار الحق (٢ / ٤٩٦ - ٥٠٤) طبعة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

ما فيها من ركاكة، وهو غيض من فيض، وقليل من كثير. وكل نص منها ينضح بالقسوة البالغة، والوحشية القاسية، التي لا تعرف الرحمة إليها سبيلا، بل إن الوحوش لا تقتل إلا ما تحتاج إليه لأكلها، أما تذبيح الألوف، وعشرات الألوف، بل مئات الألوف من البشر، بهذه الاستهانة والسهولة، كأنما تبيد صراصير، أو نملا، لا لسبب ولا لجرم إلا لأنهم مخالفون في الدين، أو لأنهم سكان أرض معينة، وأن يتم ذلك من رسل وأنبياء لهم مقام عند الله، مثل موسى ويوشع وداود وغيرهم، فهذا هو الذي يذر الحليم حيران[1]!

ولا غرو أن تؤثر هذه القصص الإسرائيلية، والأخبار الدينية، المنقولة من أسفار التوراة، وملحقات التوراة، من أسفار الأنبياء، في نفوس قراء هذه النصوص المقدسة عندهم من اليهود والنصارى على السواء، وأن تنشئ فيهم تلك (النفسية المتوحشة) التي لا ترحم ولا ترق لضعيف ولا مسكين، وتستحل قتل النساء والولدان والشيوخ، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا، ولا عجب أن وصف القرآن بني إسرائيل بهذا الوصف

---

(١) وإن كنا نحن المسلمين - بحكم تعظيمنا لرسل الله وأنبيائه - نبرئهم من هذه التهم الشنيعة، والجرائم الفظيعة، ونعتقد أن هذه الفظائع المروِّعة مما أضيف إلى التوراة وملحقاتها، أو على الأقل بولغ فيها. ولم ينسب قرآننا أيّ شيء من هذه الفظائع إلى موسى أو داود عليهما السلام، بل ذكرهما بكل خير وفضيلة.

المعبر، فقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٤].

وفي مقام آخر قال تعالى عن بني إسرائيل بعد أن أخذ عليهم الميثاق أن يعملوا الصالحات، حتى يستحقوا مثوبة الله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً** ﴾ [المائدة: ١٣].

وهناك مواقف أخرى سنضعها كملاحق في آخر الكتاب[١].

* * *

(١) انظر: ملحق (٤)، (٥)، (٦).

(٥)
أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

أشاع رجال الدين في أوربا، في حملتهم الظالمة على الإسلام، ومعهم البابا بنديكت السادس عشر: أن الإسلام لم ينتشر في العالم إلا بحد السيف، وإخضاع الناس لعقيدته بالقوة العسكرية، ولولا هذا ما انفتحت له القلوب، ولا اقتنعت به العقول، ولكنها أكرهت عليه إكراها تحت بريق السيوف، فخيَّرهم بين الإسلام والقتل، فإما أن يسلم وإما أن يطير عنقه!

وقد قال الإمبراطور البيزنطي لمحاوره المسلم الفارسي فيما نقله عنه البابا: أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، غير الأشياء الشرِّيرة وغير الإنسانية، مثل أمره بنشر دينه بحدِّ السيف؟! نقلها البابا نقل المسلِّم لها، المقرِّ بها.

وهذه فرية تكذبها تعاليم الإسلام القطعية، وتكذبها وقائعه التاريخيه، ويكذبها المنصفون من المؤرخين المستشرقين أنفسهم.

فأما تعاليم الإسلام فهي تنفي الإكراه في الدين نفيا مطلقا عاما، بقوله تعالى في القرآن المدني: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة:٢٥٦].

وهو يؤكد ما جاء في القرآن المكي من قوله تعالى بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٩٩]، وقوله تعالى على لسان نوح: ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ [هود:٢٨].

وأما دعوى تخيير الناس بين الإسلام والسيف، فهي كذبة أخرى: فالثابت بالنصوص الشرعية، والوقائع التاريخية: أن المسلمين كانوا يخيرون مَن يقاتلونهم – إذا كتب عليهم القتال – بين أمور ثلاثة: الإسلام أو دفع الجزية أو القتال. والجزية مبلغ زهيد يطلب من الرجال القادرين على القتال، ولا يؤخذ من امرأة، ولا صبي، ولا زَمِن، ولا أعمى، ولا فقير، ولا راهب في صومعته، وتتفاوت بتفاوت قدرات الناس، فكل على قدر طاقته، وطلب مثل هذا المبلغ – في مقابلة حمايته وكفالته والدفاع عنه – ليس شيئا باهظا يكره صاحبه على ترك دينه والدخول في الإسلام.

كما تقول وقائع التاريخ أيضا: إن المسلمين حينما فتحوا البلاد، لم يتدخلوا قط في شؤون دينها، ولم يُرغموا أحدا قط على تغيير عقيدته، ولم يثبت التاريخ واقعة واحدة أكره فيها فرد غير مسلم، أو أسرة غير مسلمة، أو بلدة غير مسلمة، أو شعب غير مسلم، على الدخول في الإسلام.

كما أثبت التاريخ أن كثيرا من البلاد الإسلامية التي نعرفها اليوم: لم يدخلها جيش مسلم، ولكنها دخلت في الإسلام بتأثير التجار وغيرهم من الناس الذين لم يكونوا علماء ولا دعاة

محترفين، وإنما أحبهم الناس لما رأوا فيهم من صدق الإيمان، وحسن الخلق، وحب الخير للناس، فكانوا أسوة حسنة، فأحب الناس دينهم بحبهم، ودخلوا فيه أفرادا وجماعات. هكذا دخل الإسلام في ماليزيا وإندونيسيا والفلبين وغيرها: بوساطة تجار حضرموت وأمثالهم ممَّن جاءوا من جنوب اليمن، ضاربين في الأرض، مبتغين من فضل الله.

وهناك بلاد كثيرة في إفريقيا انتشر فيها الإسلام عن طريق الطرق الصوفية، وعن طريق الاحتكاك بالمسلمين، والتأثر بسلوكياتهم وآدابهم وأفكارهم.

وحتى البلاد التي دخلتها الجيوش: كان وجودها محصورا في العواصم والثغور، لا في كل المدن والقرى.

لم تدخل الجيوش الإسلامية التي فتحت الهند الكبرى، إلا في دائرة محدودة، ولكن انتشار الإسلام في القارة الهندية، كان أبعد وأوسع بكثير مما دخلته الجيوش، وامتدت دعوته شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، حتى كان من تأثيرها: وجود دولتين إسلاميتين كبيرتين هما: باكستان وبنجلاديش، ووجود أكبر تجمع إسلامي للمسلمين في الهند بعد إندونيسيا، برغم شكوى كثير من العلماء والناقدين من تقصير المسلمين خلال حكمهم الطويل للهند، من توصيل الدعوة للهندوس، ولا سيما دعوة طائفة (المنبوذين) للإسلام دين الأخوة والعدالة والمساواة.

السيف لا يفتح قلبا:

ولقد اتخذ المبشرون والمستشرقون من الفتوح الإسلامية: دليلا على أن الإسلام إنما انتشر بهذه القوة والسرعة، نتيجة لأنه قهر الناس بالسيف، فدخل الناس تحت بريقه مذعنين طائعين.

ونقول لأصحاب دعوى انتشار الإسلام بالسيف: إن السيف يمكنه أن يفتح أرضا، ويحتل بلدا، ولكن لا يمكنه أن يفتح قلبا. ففتح القلوب وإزالة أقفالها: تحتاج إلى عمل آخر، من إقناع العقل، واستمالة العواطف، والتأثير النفسي في الإنسان.

بل أستطيع أن أقول: إن السيف المسلط على رقبة الإنسان، كثيرا ما يكون عقبة تحول بينه وبين قبول دعوة صاحب السيف. فالإنسان مجبول على النفور ممَّن يقهره ويُذلُّه.

ومَن ينظر بعمق في تاريخ الإسلام ودعوته وانتشاره: يجد أن البلاد التي فتحها المسلمون، لم ينتشر فيها الإسلام إلا بعد مدة من الزمن، حين زالت الحواجز بين الناس والدعوة، واستمعوا إلى المسلمين في جو هادئ مسالم، بعيدا عن صليل السيوف، وقعقعة الرماح، ورأوا من أخلاق المسلمين في تعاملهم مع ربهم، وتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع غيرهم: ما يحببهم إلى الناس، ويقربهم من دينهم، الذي رباهم على هذه المكارم والفضائل.

وانظر إلى بلد كمصر، وقد فُتحت في عهد أمير المؤمنين

الفاروق عمر بن الخطاب، ولكن ظلَّ الناس على دينهم النصراني عشرات السنين، لا يدخل فيه إلا الواحد بعد الواحد . حتى إن الرجل القبطي الذي أنصفه عمر، واقتص لابنه من ابن والي مصر: عمرو بن العاص، لم يدخل في الإسلام، رغم أنه شاهد من عدالته ما يَبهر الأبصار .

وقد فنَّد الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد هذه التهمة الباطلة في أكثر من كتاب له، ومما قاله :

(شاع عن الإسلام أنه دين السيف، وهو قول يصح في هذا الدين إذا أراد قائله : أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح، ولكنه غلط بيِّن إذا أريد به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف، أو أنه يضع القتال في موضع الإقناع .

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربي كبير، هو (توماس كارْلَيل) صاحب كتاب (الأبطال وعبادة البطولة) فإنه اتخذ محمدا ﷺ مثلا لبطولة النبوة، وقال ما معناه :

(إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا لدعوته! فإذا آمن به مَن يقدرون على حرب خصومه، فقد آمنوا به طائعين مصدِّقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها) .

قال العقاد :

(والواقع الثابت في أخبار الدعوة الإسلامية : أن المسلمين

كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب، قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركي قريش في مكة المكرمة، فهجروا ديارهم، وتغربوا مع أهليهم، حتى بلغوا إلى الحبشة في هجرتهم، فهل يأمنون على أنفسهم في مدينة عربية قبل التجائهم إلى (يثرب) وإقامتهم في جوار أخوال النبي عليه السلام، مع ما بين المدينتين (يعني: مكة ويثرب) من التنافس الذي فتح للمسلمين بينهما ثغرة للأمان؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها (قبيلتي الأوس والخزرج) من نزاع عَلى الإمارة فتح بينهما كذلك ثغرة أخرى يأوي إليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة، وهو الجوار الذي لم يضق من قبل بكل لائذيه في عهد الجاهلية.

ولم يعمد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدُّهم عن الاقتناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها؛ لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء.

وقد بيَّن الأستاذ العقاد أن المسلمين سالموا الحبشة ولم يحاربوها، وإنما حاربوا الفرس، وحاربوا الروم؛ لأنهم هم الذين بدأوا بالعدوان على المسلمين.

قال: ولم يفاتح النبي ﷺ أحدا بالعداء في بلاد الدولتين. وإنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى، ولم تقع

الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم، إلا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعدادهم العدة لقتال المسلمين. وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها والتحصن دونها)[1] اهـ.

قدرة الإسلام على الانتشار السلمي:

لقد ذكرت في كتابي (تاريخنا المفترى عليه) وأعني بالطبع: تاريخنا الإسلامي: أن من مآثر هذا التاريخ: أنه سجَّل لديننا قدرته على الانتشار السريع، ودخول الأمم فيه أفواجا، بأدنى دعوة إليه، وإن لم يَقُم بهذه الدعوة أناس محترفون متخصصون في التبشير به، متفرغون له.

وسر ذلك: أن هذا الدين - بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته - تتوافر فيه: موافقة الفطرة، وملاءمة العقل، وتزكية النفس، وسمو الروح، وصحة الجسم، وتماسك الأسرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإشاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان.

وأبرز ما في هذا الدين سهولة عقائده التي ليس فيها

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٢١٩، ٢٢٠.

غموض ولا التواء ولا تناقض، تقبلها الفطرة السليمة، ويسلم لها العقل المستقيم.

فلا غرو أن انتشر دين الإسلام انتشار أضواء الصباح، فملأ الآفاق، ومحا الظلام، واستنارت به الأبصار والبصائر، ورحب الناس به في عامة الأقطار.

الحق أن سهولة تعاليم الإسلام، وسمو أخلاق المسلمين: هما اللذان مهدا السبيل لدخول الأمم في الإسلام، وليس السيف، كما تقوَّل المتقولون.

انتشار الإسلام بفضائله وقوته الذاتية:

ولقد ألَّف المؤرخ المعروف الدكتور حسين مؤنس كتابا أسماه (الإسلام الفاتح)، وقال عنه: أنه دراسة في تاريخ البلاد التي فتحها الإسلام بفضائله وقوته الذاتية، دون أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب. وقد تتبَّع انتشار الإسلام في هذه البلاد، وبيَّن كيف دخل الإسلام إليها، بما يقطع كل شك، ويردُّ على كل تخرُّص بأن المسلمين استخدموا القوة في نشر دينهم. يقول الدكتور مؤنس رحمه الله:

(لم يسبق فيما مضى أن كانت للمسلمين سياسة موضوعة لنشر الإسلام، يقوم عليها رجال متخصصون يجرون في أعمالهم على مناهج مقررة، كما هي الحال في النصرانية مثلا، حيث نجد البابوية الكاثوليكية، وما تبعها من منظمات كهنوتية

كالفرنشسكية والدومينيكية والجزويت، وكذلك بما تنظمه الهيئات البروتستانتية من حملات تبشير، تعد رجالها في معاهد متخصصة، وتنفق عليها المال الوفير، ثم ترسلهم إلى البلاد البعيدة لدعوة الناس إلى أديانها بأساليب علمية مدروسة، لإقناع من يصادفونه من الناس بصدق ما يدعون إليه، وإدخالهم في العقيدة، ويبلغ الأمر أن يطلّق أولئك الدعاة الدنيا، ليخلصوا للدعوة خلوصا تاما، كما نعرفه في جماعات الرهبان المسيحية والبوذية أحيانا.

في الإسلام لا نجد شيئا من هذا إلا في عصرنا اليوم، عندما تزايدت تيارات التبشير غير الإسلامية، ولم يعد هناك مناص من أن يُعنَى المسلمون بالدعوة وتنظيمها، وإعداد الرجال القادرين عليها، فيما عدا ذلك كان الإسلام هو الذي نشر نفسه بنفسه: هو الذي دعا لنفسه واجتذب قلوب الناس؛ فأسلموا حبا في الإسلام وإعجابا به والتماسا لرحمة الله وهداه.

وإنه لمما يستوقف النظر أن قوة الإسلام الذاتية قد غلبت تنظيمات الدعاة، وأثبتت أنها أفعل وأبعد أثرا من المال الذي أنفقه الآخرون على دعاواهم، فانتشر واتسع مداه، ودخلت فيه الأمم بعد الأمم، من تلقاء نفسها بمجرد وصول الدعوة إليها. ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد، ويعرضون الإسلام على أهله، ثم يدعونهم وشأنهم؛ حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية في تمهل، حتى لقد ذهب بعض الشانئين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون

بنشر دينهم، وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام، وما إلى ذلك مما نجده مسطورا في كتب أعداء الملة.

وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام، وإنما كان سيرا على أسلوب الدعوة في عهدها الأول: أسلوب عرض الدين على الناس، وتركهم بعد ذلك أحرارا إلى أن يهدي الله منهم من يشاء.

ومن غريب ما حدث في بلاد مصر والأندلس: أن كان مسلك العرب هذا أدعى إلى دخول الناس في الإسلام، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم: أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام، ولا يستخدمون القوة في ذلك، كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون؟

قال يولوج الراهب القرطبي المبغض للإسلام: (فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام، فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليه، لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به، وضنهم به على غيرهم، فما زالوا يفعلون ذلك، ويسألون عن الإسلام ويستفسرون، حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا).

ولقد قال الراهب القبطي يوحنا النقبوس شيئا من ذلك،

وكان متأسفا: لأن العرب لم يلجئوا إلى القوة في فرض الإسلام، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة، ولما وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميسر إلى القلوب في مصر والأندلس.

وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر، وكانوا من أشد الناس استمساكا بعقيدتهم، حتى لقد استشهدت في سبيلها منهم جماعات بعد جماعات، على أيدي عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس، وطغاة الروم من أمثال قيرس، فلا تجد لتساؤلك جوابا؛ لأن التحول إلى الإسلام في هذين البلدين - مصر والأندلس - تم في هدوء وسكون: انسابت العقيدة في قلوب الناس، كما ينساب الماء في أرض الزرع، فتخضر وتزهر وتثمر بإذن ربها.

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه، فهذا الرجل الفريد في بابه، الذي وهب نفسه للإسلام، كان يلقى رئيس القبيلة، ويحدثه، ثم يدعوه إلى الإسلام؛ فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة، ثم يتبعه بعد ذلك قومه.

إن مداخل الإسلام إلى القلوب، هي سماحته وبساطته وإنسانيته. إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال، ويفتح له إلى الله سبحانه بابا واسعا للمغفرة والأمل وثواب الآخرة، وكل

ذلك دون مقابل. في أديان أخرى تفرض عليه أموال وهدايا وقرابين، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار.. لا شيء من هذا في الإسلام، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلا ذلولا.

أما مسالك الإسلام، فهي دروب الأرض جميعا: لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر، بالحرب والسلم، لقد اخترق الجبال والشعاب، وأوجد لنفسه طرقا ومسالك لا تخطر على بال أحد. لقد اشترك في نقل الإسلام حتى الكفار، ومن بين المستشرقين رجل - سنتحدث عنه - نصح حكومته بترك الإسلام ينتشر، حتى يشتغل به الناس، ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين، وأخذت الدولة بكلامه.

وانساح الإسلام في إندونيسيا حتى عمها كلها. وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الونقارا في غرب أفريقية على سبيل العناد مع جارتها، فلما دخلت فيه سعدت وارتقت وسادت وتبعتها خصمتها الأولى... بفضل هذه العداوة - التي أصبحت صداقة - اخترق الإسلام مائتي كيلومتر من الغابات الاستوائية التي لا يخترقها أحد إلا بمشقة، وهذه القبيلة - وتسمى الونقارا آيا - تعتبر في مقدمة قبائل داهومي، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة. لقد دخلت الإسلام دون أن تدري أي حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين.

الإسلام دين طيار:

والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا ينتقصه شيئا، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى، ويجد الطريق إليه فيقف بين يديه خمس مرات في اليوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإسلام، وكلها خير ومساواة وعدل، في حين يتقاضاه رجال الدين في الأديان الأخرى- كما قلنا - الإتاوات في كل مناسبة، فهو يؤدي مالا إذا تزوج، ويؤدي مالا كلما أنجب ولدا، ويؤدي مالا ليعمِّد الطفل الوليد، ثم مالا آخر ليثبته في الجماعة المسيحية إذا ضرب في مداخل الشباب، بل يؤدي مالا إذا مات له ميت لكي تصلى عليه صلاة الجنازة، وبالإضافة إلى ذلك يظل عمره كله تابعا لرجل الدين في كل ما يتصل بالله سبحانه، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القس، ووقف هو يسمع ولا يملك إلا أن يقول: آمين، ولكن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه، حتى لو كانت صلاة الجماعة، وفي غير الإسلام يصلي القس مع مساعديه نيابة عن الناس.

والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام،

أنه (دين طيار) ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر، كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح! وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمل مدى انتشار الإسلام، فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي المساحة التي فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام. أما الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياسة مرسومة لذلك!! إنما هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفا على القلوب، قريبا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه، فهو الري الذي تظمأ إليه النفوس وتستقي منه، وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في هذه الدنيا، ويهون عليه الموت، فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة بل هو المدخل إلى الحياة فحسب، وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى.

ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هو: وضوحه وصدقه، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك، كما ترى في الأديان الأخرى، حتى الغيب الذي تؤمن به في الإسلام حقيقة، فإن الإنسان لا يرى الله بالعين المبصرة، وإنما يحس به في نفسه، وفي كل ما حوله بالبصيرة المنيرة، والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالقه، فهو الحق ولا حق غيره، وأنت

لا تؤمن بالله؛ لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق، وإنما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق، وكلٌ ما فيه معجز وخارق، وأنت تراه رأي العين في شخصك الذي يعيش ويتحرك ويفهم، لا تدري كيف، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك، وحركة جسدك، ونبض قلبك ؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أن تؤمن بنبيه الذي حمل إليك رسالته، فالله سبحانه حق، ونبيه صدق، وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى في نفسك، وغاية ما تحتاج إليه من يذكرك بها، وهذا معنى من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم[١] اهـ .

شهادة غوستان لوبون :

هذه شهادة مؤرخ كبير مثل الدكتور حسين مؤنس، ولكن قد يقال : إنها شهادة مسلم لدينه . فهذه شهادة من مؤرخ غير مسلم، وهو المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الشهير (غوستان لوبون) في كتابه (حضارة العرب) الذي نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر .

فلسفة القرآن وانتشاره في العالم :

يقول لوبون تحت عنوان (فلسفة القرآن وانتشاره في العالم) :

---

(١) الإسلام الفاتح لحسين مؤنس صـ٢٠ - ٢٤ ، نشر الزهراء للإعلام العربي .

إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسة : أمكننا عدُّ الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمن على كل شيء، ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم . (أي كما في النصرانية) وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم .

ويشير لوبون إلى يسر الإسلام، وسهولته البالغة والتي تتمثل في عقيدة التوحيد الخالص، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، وهي التي تجعل إدراك الإسلام سهلا على كل إنسان، فليس في الإسلام غموض ولا تعقيد، مما نراه في الأديان الأخرى وتأباه الفطرة السليمة، من المتناقضات والغوامض .

قال : ولا شيء أكثر وضوحا، وأقل غموضا، من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله . وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها . وإنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة . وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثا عن التثليث، والاستحالة، وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل !

وساعد وضوح الإسلام البالغ: ما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة، على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصر أية أمة، بعد أن رضيت بالإسلام دينا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني: ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده. والإسلام إذا ما نظر إليه من هذه الناحية: وجد أنه من أشد الأديان تأثيرا في الناس، وهو - مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة، إلخ - يعلِّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلا عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيمانا ثابتا لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيما إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائما، فلما ظهر محمد، ومضى على ظهوره قرن واحد، كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي خفقت راية النبي فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس، وحملا على العدل والإحسان والتسامح.

وجرت حضارة العرب، التي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدُّثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ماله في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئا من قوتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص [١]، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى وجزء كبير من الهند وروسيا والصين، ثم جميع إفريقية إلى ما تحت خط الاستواء تقريبا.

وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورا لها وحدة اللغة والصلات التي يعبر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

---

(١) قيل هذا في القرن التاسع عشر، ومع هذا كان المسلمون أكثر من ذلك بكثير، وسيأتي من كلام (لوبون) نفسه ما يدل على أن المسلمين أكثر من ذلك.

وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يُمكِن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام:

وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة، فعزوها إلى ما زعموه من تحلل محمد وبطشه، ويسهل علينا أن نُثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وإن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبا على الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمد، وإن هذه الشعوب لم تجد نفعا جديدا في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلل محمد نقضه العلامة الفيلسوف (بيل) منذ زمن طويل. وقال بيل، بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشد مما أمر به النصارى:

(إن من الضلال، إذن، أن يُعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلى أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنه يبيح له البقاء على سيئ الأخلاق، وقد دوَّن (هوتنجر) قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى – مع القصد في مدح الإسلام – أن هذه

القائمة تحتوي أقصى ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن العيوب والآثام)[1] .

ومما نبه إليه العلامة (بيل): أن ملاذّ الجنة التي وعد بها المسلمون لا تزيد على ما وعد به النصارى في الإنجيل . جاء في الإنجيل: (لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب إنسان: ما أعده الله للذين يحبونه) .

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتح العرب وأسباب انتصاراتهم: أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل .

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس، فضّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام .

---

(١) وقال الفيلسوف الشهير (كارلايل) في كتابه الأبطال، في فصله الذي كتبه عن البطل في صورة نبي، واتخذ النبي محمدا نموذجا ممثلا للبطولة: (إن دينه ليس بالدين السهل، فإنه – بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر – لم يفلح في أن يكون دينا سهلا) انظر: الدعوة إلى الإسلام صـ٤٦٠ لتوماس أرنولد .

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها[1]، ويزيد عدد مسلمي الهند اليوم يوما فيوما، مع أن الإنجليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهِّزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقل انتشارا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا [2] في الوقت الحاضر.

وليس فيما يوصم به الإسلام من الجَبْرية ما يزيد خطرا على ما رددنا عليه، وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفا من الجَبْرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلا [3]. وهناك

---

(١) هذه إحصائيات قديمة من القرن التاسع عشر، ومع هذا ليست دقيقة.

(٢) إذا كان المسلمون في الهند يزيدون على ٥٠ مليونا، وفي الصين على ٢٠ مليونا، فكيف يكون عدد جميع المسلمين مائة مليون، كما قال الباحث من قبل؟!!

(٣) بل هناك مئات الآيات من القرآن في سوره المكية والمدنية =

فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسنة لا تتبدل، قال المصلح الديني القدير لوثر: "يحتج على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المقدس التي لا تحصى، وإن شئت فقل بكل ما ورد في الكتاب المقدس".

وكتب جميع الأمم الدينية مُفَعَّمَة بالجَبْرية التي يسميها القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر، الذي لا راد لحكمه، على رأس كل أمر، عادِّين إياه سلطة مطلقة لا مناص للناس والآلهة من إطاعتها، وحاول (أديب) على غير جدوى، أن يضرع إلى هاتف الغيب الذي أخبره بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، فلم يستطع ردا لحكم القدر الجبار.

ولم يكن محمد، إذن جَبْريا أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا قبله، ولم يسبق محمد في جبريته علماء الوقت الحاضر الذين أيدوا مع العلامة لابلاس رأي الفيلسوف ليبنتز في القول: (إنه إذا وجد ذكاء يعرف، لوقت، جميع قوى العالم،

= تثبت بكل وضوح: أن الإنسان مكلف مختار، وأنه هو الذي يقرر مصير نفسه، وأن الله تعالى منحه من القوى والمواهب والملكات: ما يمكنه من صنع مصيره بيده، كما قال تعالى: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ [الإسراء:١٥]، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [المدثر:٣٨]، ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [الأحزاب:٥] .... إلى آخره.

ومواضع ما فيه من الموجودات، ويستطيع أن يحللها، ويحيط بمحركات أعظم أجرام العالم وأصغر ذراته، فإنه لا يبقى عنده شيء غير معين، ويصبح الماضي والمستقبل حالا في نظره).

والجَبْرية الشرقية التي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر هي نوع من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضع لحكم القدر من غير تبرُّم وملاومة، وتسليم مثل هذا هو وليد مزاج أكثر من أن يكون وليد عقيدة، وقد كان العرب جبريين في مزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجربيتهم تأثير في ارتقائهم، كما أنها لم تؤد إلى غوستان لوبون انحطاطهم[1] اهـ.

وكلام غوستان لوبون عن (الجبرية) عند محمد والعرب (أو المسلمين) غير دقيق، ويحتاج إلى توضيح وتعليق لا يسمح له هذا المقام.

توماس أرنولد ينصف الإسلام:

وإذا كان غوستاف لوبون الفرنسي قد أنصف الإسلام وتاريخ المسلمين في كتابه، فقد جاء بعده المستشرق البريطاني البحاثة الشهير (توماس أرنولد) الذي كان يعرف العربية والفارسية وعددا من اللغات الأوربية، والذي أصدر كتابه القيم (الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية) وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، (١٨٩٦م).

---

(١) انظر: حضارة العرب.

وقد طبع الكتاب بالإنجليزية عدة طبعات، ونقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وزميلاه، ونشر عدة مرات ابتداء من سنة ١٩٤٧م .

والكتاب جدير بأن يقرأ، لما فيه من وقائع وأحداث مأخوذة من مصادر عدة وموثقة، ومكتوبة بلغات شتى، عكف الرجل عليها، حتى استخرجها من مظانها وحشدها في كتابه العلمي الموثق[١] .

وكلها تؤكد هذه الحقيقة التي وضحت وضوح الشمس في ضحى النهار : أن الإسلام لم ينتشر قط بالسيف في أي البلدان، ولا في أي عصر من الأعصار؛ بل انتشر بالسلم، وبالدعوة الهادفة، وبأخلاق المسلمين، وبسهولة فهم عقائد الإسلام وتعاليمه، ونحو ذلك من عوامل التأثير السلمي، الذي لا يشوبه أي لون من ألوان القوة المادية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) انظر: كتابنا (تاريخنا المفترى عليه) صـ١٩٧ - ٢٠٩ .

الملاحق

١ - رد على تصريحات البابا بيان من الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين الإسلام دين العقل والرحمة.

٢ - بيان بشأن موقف بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ.

٣ - صفحات ... من مذابح النصارى - مذبحة الصليبيين فى القدس.

٤ - بعض ما فعل الكاثوليك بالبروتستانت.

٥ - بعض ما فعل البروتستانت انتقاما من الكاثوليك.

٦ - مقاومة النصرانية للعلم فى التاريخ.



(ملحق ١) [1]

رد على تصريحات البابا
بيان من رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الإسلام دين العقل والرحمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فوجئت وفوجئ المسلمون في أقطار الأرض بتصريحات البابا بنديكت السادس عشر خلال زيارته إلى ألمانيا، حول الإسلام وعلاقته بالعقل من ناحية، وعلاقته بالعنف من ناحية أخرى.

وكنا ننتظر من أكبر رجل دين في العالم المسيحي: أن يتأنى ويتريث ويراجع ويشاور، إذا تحدث عن دين عظيم كالإسلام، استمر أكثر من أربعة عشر قرنا، ويتبعه نحو مليار ونصف من البشر، ويمتلك الوثيقة الإلهية التي تتضمن كلمات

---

(١) صدر هذا البيان بتاريخ: ٢١ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٦م، بتوقيع رئيس الاتحاد، أذاعته قناة الجزيرة، وبعض الصحف ووكالات الأنباء في حينه.

الله الأخيرة للبشرية (القرآن الكريم) الذي لم يزل يُقْرأ كما كُتب في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ولم يزل يُتْلى كما كان يُتْلى في عهد النبوة، ويحفظه عشرات الألوف،في أنحاء العالم.

ولكن البابا الذي قالوا: إنه كان يشغل مقعدا لتدريس اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة غوتنبورغ منذ ١٩٦٩م سارع بنقد الإسلام، بل بمهاجمته في عقيدته وشريعته، وبطريقة لا يليق أن تصدر من مثله.

ففي وسط الجموع الحاشدة التي تزيد على مائتي ألف شخص، تحدث البابا عن الإسلام دون أن يرجع إلى كتابه المقدس (القرآن)، وبيانه من سنة نبيه محمد، واكتفى بذكر حوار دار في القرن الرابع عشر بين إمبراطور بيزنطي ومسلم فارسيّ مثقف. وكان مما قاله الإمبراطور للرجل: (أرني ما الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين – الذي كان يبشر به – بحد السيف!).

ولم يذكر البابا ما رد به الفارسي المثقف على الإمبراطور.

ونسي البابا: أن محمدا جاء بالكثير الذي لم تأت به المسيحية ولا اليهودية قبلها، جاء بالمزج بين الروحية والمادية، وبين الدنيا والآخرة، وبين نور العقل ونور الوحي، ووازن بين الفرد والمجتمع، وبين الحقوق والواجبات، وقرر بوضوح الإخاء بين

الطبقات داخل المجتمع، وبين المجتمعات والشعوب بعضها وبعض، وقال كتابه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وشرع مقابلة السيئة بمثلها، وندب إلى العفو، ودعا إلى السلام، ولكن أمر بالإعداد للحرب: ﴿ **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأنصف المرأة وكرمها إنسانا وأنثى وابنة وزوجة وأما وعضواً في المجتمع.

ونسخ كثيرا من الأحكام التي كانت أغلالا في اليهودية، كما قال تعالى: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

وأما ما قاله الإمبراطور البيزنطي من أن محمدا لم يجئ إلا بالأشياء الشريرة، وغير الإنسانية، مثل الأمر بنشر دينه بحد السيف! فهو قول مبني على الجهل المحض، أو الكذب المحض. فلم يوجد من حارب الشر، ودعا إلى الخير، وفرض كرامة الإنسان، واحترم فطرة الإنسان، مثل محمد الذي أرسله الله ﴿ **رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾.

ودعوى أنه أمر بنشر دينه بحد السيف أكذوبة كبرى، فهذا

القرآن بين أيدينا: مائة وأربع عشرة سورة، متضمنة أكثر من ستة آلاف آية، فهل فيها آية واحدة، تأمر بنشر الإسلام بالسيف؟! وهذه أحاديث الرسول الصحاح، فهل فيها حديث واحد يأمر بنشر الدين بالسيف؟! بل نصوص القرآن والسنة كلها تثبت عكس هذه الدعوى. فهذا ما أمر به القرآن: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]

والحقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولم ينتصر بالسيف، بل انتصر على السيف الذي شهر في وجهه من أول يوم. وظل ثلاثة عشر عاما يتحمل الأذى والفتنة في سبيل الله، والمسلمون يطالبون الرسول الكريم: أن يأذن في الدفاع عن أنفسهم، وهم يأتونه بين جريح ومشجوج، فيأبى أن يأذن لهم. حتى نزل قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

هنا شرع الإسلام الجهاد دفاعا عن النفس، ومقاومة للفتنة، والفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل. ولذا قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

الَّذين يُقَاتِلُونكُمْ ولا تعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الْمُعْتَدين ﴾ [البقرة: ١٩٠] ، ﴿ **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ٩٠] .

والإسلام لا يقبل إيمان مَن يدخله عن طريق الإكراه، كما قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وما قول البابا فيما جاء في الكتاب المقدس في سفر التثنية من التوراة: إن البلدة التي يدخلها موسى ومن معه من المدن البعيدة، عليهم أن يقتلوا جميع ذكورها بحد السيف ... أما بلاد أرض الميعاد، فالمطلوب دينا ألا يستبقوا فيها نسمة حية! يعني: الإبادة والاستئصال الذي نفذه الأوربيون النصارى حينما دخلوا أمريكا مع الهنود الحمر، وحينما دخلوا استراليا مع أهلها الأصليين!

كنا نربأ بالبابا أن يستدل بهذا الكلام المبتور في سياق حديثه عن الإسلام ونبي الإسلام.

وما يمارسه بعض المسلمين من العنف، فبعضه مشروع، بإقرار الأديان والشرائع والقوانين والأخلاق، مثل دفاع المقاومة الوطنية ضد الاحتلال في فلسطين أو في لبنان أو في العراق أو في غيرها، وتسمية هذا عنفا وإرهابا: ظلم بيِّن، وتحريف للحقائق.

وبعض ذلك أنكرته جماهير المسلمين في كل مكان، مثل

أحداث ١١ سبتمبر، ومعظم العنف غير المشروع سببه الأكبر: المظالم التي تقع على المسلمين في كل مكان (من الغربيين)، ويسكت عنها رجال الدين في الغرب، وربما باركها بعضهم.

ويقرر البابا في لقائه الجماهيري: (أن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو، ومشيئته ليست مرتبطة بأي شيء من مقولاتنا، ولا حتى بالعقل!). وأقام مقارنة مع الفكر المسيحي المتشبع بالفلسفة الإغريقية، موضحا أن (هذا الفكر يرفض عدم العمل بما ينسجم مع العقل). وكل ما هو مخالف للطبيعة الإلهية.

ولو كلف (البابا) نفسه أو كلف أحدا من أتباعه بالرجوع - ولو قليلا - إلى مصدر الإسلام الأول (القرآن) لوجد فيه من عشرات الآيات، بل مئاتها، ما يمجد العقل، ويأمر بالنظر، ويحض على التفكير، ويرفض الظن في مجال العقائد، كما يرفض اتباع الأهواء، وتقليد الآباء والكبراء، حتى كتب بعض كبار الكتاب بحق كتابا بعنوان: التفكير فريضة إسلامية.

وحسبنا قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ولو رجع إلى أقوال أئمة الإسلام، مثل الأشعري والماتريدي

والباقلاني والجويني والغزالي والرازي والآمدي وغيرهم، لوجدهم يقولون: إن العقل أساس النقل، ولولا العقل ما قام النقل، ولا ثبت الوحي، لأن ثبوت النبوة لا يتم إلا بالعقل، وثبوت النبوة لشخص معين لا يتم أيضا إلا بالعقل.

ولا يقبل المحققون من علماء الإسلام من آمن بالإسلام تقليدا لآبائه، دون إعمال للعقل، ونظر في الأدلة، ولو بالإجمال. كما قال صاحب الجوهرة:

إذ كل مَن قلَّد في التوحيد إيمانه لم يخلُ من ترديد

ولو أحببنا أن نقارن بين الديانتين: الإسلام والنصرانية، لوجدنا النصرانية هي التي لا تعير العقل التفاتا في عقائدها، وتقول تعليماتها: آمن ثم اعلم. اعتقد وأنت أعمى. اغمض عينيك ثم اتبعني. في حين أن العلم في الإسلام يسبق الإيمان، والإيمان ثمرة له، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الحج: ٥٤]، وهكذا: ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم.

لقد ألَّف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كتابه: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ليرد به على أحد نصارى الشرق الذي زعم أن النصرانية تتسع للعلم والمدنية بما لا يتسع له الإسلام. فكان رد الشيخ العلمي الموثق بالمنطق والتاريخ وحقائق الدين والعلم: أن الأصول التي يقوم عليها الإسلام هي التي تثمر العلم الحضارة والمدنية، من الإيمان بالعقل، ورفض السلطة الدينية،

والجمع بين الدنيا والآخرة . . . إلخ. بخلاف المسيحية التي تقوم في أساسها على الخوارق، ولا تؤمن برعاية السنن التي أكَّدها القرآن، والتي يقول أحد فلاسفتها الدينيين (أوغستين): أومن بهذا، لأنه محال، أو غير معقول!

ولو كان الإسلام ينكر العقل أو يهمله، فكيف أقام المسلمون تلك الحضارة الشامخة التي جمعت بين العلم والإيمان، وبين الإبداع المادي والسمو الروحي؟ والتي ظل العالم يستمد منها أكثر من ثمانية قرون، ومنها أوربا التي اقتبست منها المنهج التجريبي الاستقرائي، بدل المنهج القياسي الأرسطي، كما شهد بذلك مؤرخو العلم من أمثال غوستاف لوبون، وبير يفولت، وجورج سارطون وغيرهم.

وعن طريق الحضارة الإسلامية، عرفت أوربا فلسفة أرسطو مشروحة على يد فيلسوف وفقيه مسلم هو العلامة ابن رشد. ولولاه ما عرف الأوربيون أرسطو!

وقول البابا: إن مشيئة الله في الإسلام مطلقة لا يحدها شيء: صحيح في الجملة، ولكن أجمع علماء الإسلام على أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بحكمته لا تنفصل عنها، فلا يشاء أمرا مخالفا للحكمة، فإن من أسمائه الحسنى التي تكررت في القرآن: الحكيم. فهو حكيم فيما خلق، وحكيم فيما شرع، لا يخلق شيئا باطلا، ولا يشرع شيئا اعتباطا.

والله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لخلقه، كما

قال نبي الإسلام في مناجاته لربه: "الخير بين يديك، والشر ليس إليك" (١).

بل إن طائفة المعتزلة من متكلمي المسلمين يرون أن فعل الصلاح والأصلح للخلق: واجب على الله تعالى.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يقف البابا الحالي من الإسلام والمسلمين موقفا سلبيا، يظهر فيه الإهمال أو التوجس، أو ما هو أكثر.

ففي أول قداس أشرف عليه بعد انتخابه أواخر إبريل ٢٠٠٥م لم يذكر المسلمين بكلمة على حين خص (الإخوة الأعزاء – على حد قوله – من الشعب اليهودي بكلمات تفيض مودة وإعزازا).

وفي مدينة (كولونيا) الألمانية آخر شهر أغسطس أثناء الأيام العالمية للشباب: التقى بممثلين عن الجالية المسلمة في أسقفية المدينة، فأعرب عن بالغ انشغاله بتفشي الإرهاب، وأكد في هذا اللقاء ضرورة (نزع المسلمين ما في قلوبهم من حقد، ومواجهة كل مظاهر التعصب، وما يمكن أن يصدر منهم من عنف)!

وهذه النبرة التوبيخية، كان لها وقع سيئ في نفوس

---

(١) سبق تخريجه.

المسلمين، لما فيها من رؤية ضيقة ومن تصور تبسيطي لمنابع الإرهاب وأسبابه.

كما أن استقباله للكاتبة الإيطالية المقيمة في الولايات المتحدة (أوريانا فالاتشي)، والتي تكتب كتبا ومقالات نارية تؤلب على الإسلام والمسلمين. والتي لا ترى فرقا بين إسلام متطرف وإسلام معتدل، فالإسلام كله متطرف، والتناقض بين المسيحية والإسلام: جوهري!!

كانت هذه مواقف تعد سلبية بالنسبة للمسلمين، أما اليوم فقد أصبح الأمر يتعلق بالإسلام ذاته، ونحن المسلمين نعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين، والنبي محمد يقول: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم".

ولمريم عليها السلام سورة في القرآن، ولأسرة المسيح سورة في القرآن (سورة آل عمران)، وللمسيح وكتابه في القرآن مكان معروف. ونحن لا نريد أن نصعد الموقف، ولكن نريد تفسيرا لما يحدث، وما المقصود من هذا كله.

لقد كنا نود من البابا أن يدعو إلى حوار إيجابي بين الأديان، وحوار حقيقي بين الحضارات، بدل الصدام والصراع، وقد استجبنا من قبل للدعوة الموجهة من جمعية سانت جديو في روما إلى الحوار الإسلامي المسيحي. وشهدنا دورة للحوار مع أحبار الكنيسة في روما، وفي برشلونة، فيما سمي (قمة إسلامية مسيحية)، وشاركنا في مؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي في

الدوحة وفي القاهرة. فهل يريد الحبر الأعظم أن نغلق أبواب الحوار، ونستعد للصراع في حرب أو حروب صليبية جديدة؟

وقد بدأها بوش، وأعلنها صريحة باسم اليمين المسيحي. ونحن ندعو إلى السلم، لأن ديننا يأمرنا بذلك، ولكننا إذا فرضت علينا الحرب خضناها كارهين، نتربص فيها إحدى الحسنين، كما قال قرآننا: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦].

وكما قال نبينا: "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"(١).

فنحن ندعو إلى التسامح لا إلى التعصب، وإلى الرفق لا إلى العنف، وإلى الحوار لا إلى الصدام، وإلى السلام لا إلى الحرب. ولكننا لا نقبل أن يهاجم أحد عقيدتنا ولا شريعتنا ولا قيمنا، ولا أن يمس نبينا محمدا بكلمة سوء. وإلا فقد أذن الله لنا أن ندافع عن أنفسنا. فإن الله لا يحب الظالمين.

رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

يوسف القرضاوي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأحمد في المسند (١٩١١٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

(ملحق ٢)
بيان آخر للاتحاد بشأن موقف بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فقد تابع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين متابعة مستمرة للمواقف التي صدرت عن بابا الفاتيكان منذ ألقى محاضرته في إحدى الجامعات الألمانية بتاريخ ١٩ من شعبان ١٤٢٧هـ - ١٢/٩/٢٠٠٦م.

ولاحظ الاتحاد أنه على الرغم من إتاحته الفرصة للبابا لحذف الكلام الباطل المسيء للمسلمين ولدينهم، ولكتابهم، ولنبيهم ﷺ، وإعلان الاتحاد على لسان رئيسه فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وأمينه العام الأستاذ الدكتور محمد سليم العوّا عدة مرات عدم الحاجة إلى اعتذار البابا، لأن الاعتذار بعد الإساءة لا يقدم ولا يؤخر، والاكتفاء بحذف الكلام المذكور من النص الرسمي للمحاضرة، فإن هذه الدعوة لم تجد أذنًا صاغية.

واكتفى البابا في كل مرة تكلم فيها بالإشارة إلى أسفه لسوء فهم كلامه أي إنه يتهم المسلمين، الذين غضبوا لدينهم ولكتابهم ولنبيهم ﷺ؛ بعدم الفهم. وكرر غير مرة أن النص المنقول عن إمبراطور بيزنطي أرثوذكسي (يعتبره البابا غير مسيحي) لا يعبر عن وجهة نظره، مع أن المحاضرة كلها مبنية من أولها إلى آخرها على كلام هذا الإمبراطور؛ الأمر الذي يقطع بأن البابا يقصد تبني ما نقله عنه والبناء عليه وتأكيد معانيه الفاسدة في أذهان سامعيه وهم العالم الكاثوليكي كله.

وقد لاحظ الاتحاد أن جميع أحاديث البابا التي تناولت موضوع محاضرته وما جاء فيها من إساءة للإسلام أشار فيها إلى الأديان، وأشار إلى المسلمين، ولم يذكر ولو مرة واحدة دين الإسلام. وإذا كان الاتحاد يفهم موقف الكاثوليكية من سائر الأديان والمعتقدات فإنه لا يمكن أن يتقبل إخراج الإسلام وحده من زمرة ديانات العالم الكبرى (التي لا تؤمن الكاثوليكية بأنها أديان) ثم ذكر هذه الأديان على سبيل الجمع وذكر المسلمين كجماعات وشعوب لا كأصحاب دين ولو أنكره الفاتيكان.

وقد فوجئ الاتحاد بأن البابا، عندما التقى أمس الإثنين ٢ من رمضان ١٤٢٧هـ - ٢٥/٩/٢٠٠٦م بسفراء الدول الإسلامية المعتمدين لدى الفاتيكان، لم يذكر محاضرته بكلمة، واكتفى بالدعوة إلى الحوار باعتباره - كما يزعم - ضرورة للمستقبل.

والاتحاد يعلن، في ضوء ما سلف كله، أن الحوار الذي يدعو

إليه البابا غير ممكن ولا معقول، إذ إن القرآن الكريم يقول: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦] . ونحن ظُلمنا على لسان البابا ظلماً شديداً لا يرفعه ما قاله في لقائه مع السفراء.

بل إن القرآن الكريم ينهى المسلمين عن الجلوس مع من يسخر من كتابهم فيقول: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٠] .

لذلك قرر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين عدم إجراء أي اتصال من أي نوع مع الفاتيكان، أو المؤسسات الممثلة له، أو مندوبيه لدى الدول العربية والإسلامية، وفي سائر أنحاء العالم، إلى أن يصدر من البابا موقف جديد يجعل احتمال الحوار البناء المجدي قائمًا، والاتحاد يعلن هذا القرار للعالم الإسلامي داعيًا المسؤولين الدينيين والسياسيين إلى اتخاذ الموقف الذي يمليه عليهم دينهم وضميرهم وكرامة أمتهم واعتزازهم بالانتساب إلى رسول الله ﷺ واتباعه. وهذه المقاطعة الثقافية هي أقل ما يجب على المسلمين عمله إزاء الإصرار المستمر على عدم الرجوع إلى الحق، والاستكبار الواضح عن حذف العبارات الباطلة المسيئة للمسلمين من محاضرة البابا.

ويهم الاتحاد أن يذكّر البابا، والمسيحيين كافة، بما وصف به

القرآن الكريم أحبار النصارى وعوامّهم في قوله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

إن أقل ما يتوقعه المسلمون من المسيحيين هو مثل هذا الإنصاف الذي بغيره لا يمكن أن تقوم علاقة صحيحة بين الفريقين، ولا أن يؤدي أي حوار إلى ثمرة صالحة.

والحمد لله رب العالمين،

الأمين العام للاتحاد	رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين
أ.د. محمد سليم العوّا	**أ.د. يوسف القرضاوي**

(ملحق ٣)
صفحات ... من مذابح النصارى لليهود

إن الذين يتهمون الإسلام بأنه (دين السيف) وأنه قهر الناس بالسيف، هم أول الناس وأكثر الناس استعمالا للسيف، بموجب وبغير موجب، ولا سيما فيما بين بعضهم وبعض.

وأكتفي بأن أذكر هنا ما سجله العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه القيم (إظهار الحق) الذي ردَّ فيه على المبشرين البروتستانت دعاواهم الكاذبة على الإسلام، ومن هذه الدعاوى: أن الإسلام انتشر بالسيف. وقد بيَّن الشيخ بالبراهين: أن هذا الادعاء غير صحيح كما أشار إليه في الأمر السابع من مقدمة الكتاب، كما بين أن أفعالهم تُكذِّب أقوالهم، وأنهم أكثر الناس استعمالا للسيف كما أن أسلافهم من أهل ملتهم إذا تسلطوا تسلطا تاما، اجتهدوا في إبادة المخالفين. قال: وأنا أنقل بعض الحالات من كتبهم ورسائلهم، فأنقل حالهم بالنسبة إلى (اليهود) من كتاب (كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل) الذي عرفته في بيان الأمر الثاني، فأقول:

قال صاحبه في الصفحة (٢٧): (القسطنطين الأعظم – الذي كان قبل الهجرة بثلثمائة سنة تقريبا – أمر بقطع آذان

اليهود، وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة، ثم أمر ملك الملوك الرومي في القرن الخامس من القرون المسيحية، بإخراجهم من البلدة السكندرية التي كانت مأمنهم من مدة، وكانوا يجيئون إليها من كل جانب، فيستريحون فيها. وأمر بهدم كنائسهم، ومنع عبادتهم، وعدم قبول شهادتهم، وعدم نفاذ الوصية إن أوصى أحد منهم لأحد في ماله، ولما ظهرت منهم مقاومة، بسبب هذه الأحكام: نهب جميع أموالهم، وقتل كثيرا منهم، وسفك الدماء بظلم ارتعد له جميع يهود هذا الإقليم).

ثم قال في الصفحة (٢٨): (إن يهود البلد (انطيوح) لما أُسِروا بعد ما صاروا مغلوبين، قطَّع أعضاء البعض، وقتَّل البعض، وأجلى الباقين منهم كلهم، وظَلَم، ملكُ الملوك في جميع مملكته هؤلاء المشاركين بأنواع الظلم، ثم أجلاهم من مملكته آخرا.

وهيج ولاة الممالك الأخرى على أن يعاملوا اليهود هذه المعاملة، فكان حالهم أنهم تحملوا الظلم من آسيا إلى أقصى حد أوربا، ثم بعد مدة قليلة كلفوا في مملكة إسبانيا لقبول شرط من الشروط الثلاثة: أن يقبلوا الملة المسيحية، فإن أبوا عن قبولها يكونوا محبوسين، وإن أبوا عن كليهما يُجْلَوا من أوطانهم.

وصار مثل هذه المعاملة معهم في ديار فرنسا. فهؤلاء المساكين كانوا ينتقلون من إقليم إلى إقليم، ولا يحصل لهم موضع القرار، ولم يحصل لهم الأمن في آسيا أيضا، بل قتلوا في كثير من الأوقات، كما قتلوا في ممالك الفرنج).

ثم قال في الصفحة (٢٩): (إن أهل مِلة الكاثوليك كانوا

يظلمونهم باعتقاد أنهم كفار، وعظماء هذه الملة عقدوا مجلسا للمشورة، وأجروا عليهم عدة أحكام:

(**الأول**): من حمى يهوديا ضد مسيحي يكون ذا خطأ، ويخرج عن الملة.

(**والثاني**): أنه لا يُعطَى يهودي منصبا في دولة من الدول.

(**والثالث**): لو كان مسيحي عبده فهو حر.

(**والرابع**): لا يأكل أحد مع اليهودي، ولا يعامله.

(**والخامس**): أن يُنزع الأولاد منهم ويُربَّوْن في الملة المسيحية... وهكذا كان أحكامٌ أخر).

أقول: لا شك أن الحكم الخامس أشد أنواع الإكراه.

ثم قال: (كانت عادة أهل البلدة ثولوس من إقليم فرنسا: أنهم كانوا يلطمون وجوه اليهود في عيد الفصح! وكان رسم البلدة بزيرس: أن أهلها من أول يوم الأحد من أيام العيد إلى يوم العيد، كانوا يرمون اليهود بالحجارة، وكان يكثر القتل أيضا في هذا الرمي، وكان حاكم البلدة المسيحي المذهب يحرض أهلها على هذا الفعل).

ثم قال في الصفحة (٣٠، ٣١): (دبر سلاطين فرنسا في حق اليهود أمرا، وهو أنهم كانوا يتركون اليهود إلى أن يصيروا متمولين بالكسب والتجارة، ثم يسلبون أموالهم، وبلغ هذا الظلم لأجل الطمع غايته.

ثم لما صار (فيليب أوغسطس) سلطانا في فرنسا، أخذ أولاً الخمس من ديون اليهود التي كانت على المسيحيين، وأبرأ من الباقي ذمة المسيحيين، وما أعطى اليهود حبة، ثم أجلى اليهود

كلهم من مملكته، ثم جلس على سرير السلطنة (سانت لويس) وهو يطلب اليهود مرتين في مملكته. وأجلاهم مرتين، ثم أجلى (جرلس السادس) اليهود من مملكة فرنسا.

وقد ثبت من التواريخ: أن اليهود أجلوا من مملكة فرنسا سبع مرات، وعدد اليهود الذين أخرجوا من مملكة أسبانيا - لو فرض في جانب القلة - لا يكون أقل من ألف وسبعين ألف بيت!

وفي مملكة (النمسا) قتل كثير منهم، ونهب كثير منهم، ونجا منهم قليل، وهم الذين تنصروا، ومات كثير منهم بأن سَدُّوا أولا أبوابهم، ثم أهلكوا أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وأموالهم، إما بالإغراق في البحر، أو بالإحراق بالنار، وقتل غير المحصورين منهم في الجهاد المقدس.

وكان الإنكليز اتفقوا على أن يظلموا اليهود، فلما حصل اليأس العظيم ليهود البلدة (يرك) بسبب الظلم، قتل بعضهم بعضا، فقتل ألف وخمسمائة من الرجال والنساء والأطفال، وصاروا أذلاء في هذه المملكة بحيث إذا بغى الأمراء على السلطان، قتلوا سبعمائة يهودي، ونهبوا أموالهم، لأجل أن يظهروا شوكتهم على الناس، وسلب (رجاردوجان) و(هنري الثالث) من سلاطين إنكلترا مرارا: أموال اليهود ظلما سيما (هنري الثالث)، فإنه كانت عادته أنه كان ينهب اليهود بكل طريق على وجه الظلم، وعدم الرحمة. وقد جعل أغنياءهم الكبار فقراء وظلمهم، بحيث رضوا بالجلاء، واستجازوا أن يخرجوا من مملكته، لكنه ما قبل هذا الأمر منهم أيضًا. ولما جلس (إدوارد الأول) على سرير السلطنة، ختم الأمر بأن نهب أموالهم كلها، ثم

أجلاهم من مملكته، فأجلى أكثر من خمسة عشر ألف يهودي في غاية العسر).

ثم قال في الصفحة (٣٢): (نقل مسافر اسمه (سوتي): أنه كان حال قوم برتكال (البرتغال) قبل خمسين عاما: أنهم كانوا يأخذون اليهودي ويحرقونه بالنار، ويجتمع رجالهم ونساؤهم يوم إحراقه، كاجتماع يوم العيد، وكانوا يفرحون بذلك. وكانت النساء يصحن (أي يزغردن) وقت إحراقه فرحا)!

ثم قال في الصفحة (٣٣): (إن البابا الذي هو عظيم فرقة الكاثوليك قرر عدة قوانين شديدة في حق اليهود). انتهى كلام كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل.

وقال صاحب سير المتقدمين: (إن السلطان السادس (قسطنطين الأول)، أمر بمشورة أمرائه في سنة (٣٧٩م) أن يتنصر كل من هو في السلطنة الرومية ويقتل مَن لم يتنصر) انتهى. قال: وأي إكراه أكثر من هذا؟!

مذبحة الصليبيين في القدس:

(ولطامس نيوتن) (تفسير) للأخبار عن الحوادث المستقلة المندرجة في الكتب المقدسة. وطبع هذا التفسير سنة ١٨٠٣م في لندن. ففي الصفحة (٦٥) من المجلد الثاني في بيان تسلط أهل التثليث على أورشليم: (هكذا فتحوا أورشليم (القدس) في الخامس عشر من شهر تموز الرومي سنة ١٠٩٩م بعدما حاصروا خمسة أسابيع، وقتلوا غير المسيحيين، فقتلوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين، وجمعوا اليهود وأحرقوهم، ووجدوا في المساجد غنائم عظيمة) انتهى.

(ملحق ٤)
بعض ما فعل الكاثوليك بالبروتستانت

قال: وإذا عرفت حال ظلمهم في حق اليهود خصوصا، وفي حق رعية السلطنة عموما، وما فعلوا عند تسلطهم على أورشليم، فالآن أذكر نبذا مما فعل الكاثوليك بالنسبة إلى غيرهم من المسيحيين، وأنقل هذه الحالات عن كتاب (الثلاث عشرة رسالة) الذي طبع في بيروت سنة ١٨٤٩م من الميلاد باللسان العربي، فأقول:

(قال في الصفحة (١٥، ١٦): (أما الكنيسة الرومانية، فقد استعملت مرات كثيرة الاضطهادات والطرد المزعج ضد البروتستانت، أي الشهود أو بالحري الشهداء، وذلك في ممالك أوربا. ويظن أنها أحرقت في النار أقل ما يكون: مائتين وثلاثين ألفا من الذين آمنوا بيسوع دون البابا، واتخذوا الكتب المقدسة وحدها هدى وإرشادا لإيمانهم وأعمالهم، وقد قتلت أيضًا منهم ألوفا بحد السيف والحبوس والكلبتين، وهي آلة لتخليع المفاصل بالجذب، وأفظع العذابات المتنوعة. ففي فرنسا قتل في يوم واحد ثلاثون ألف رجل، وذلك في اليوم الملقب بيوم ماريرثو لماوس،

وعلى هذا الأسلوب أذيالها مختضبة بدماء القديسين) انتهى كلامه بلفظه .

وفي الصفحة (٣٣٨) في الرسالة الثانية عشرة من الكتاب المذكور : (يوجد قانون وضع في المجمع الملتئم في توليدو في أسبانيا، يقول : إننا نضع قانونا : أن كل مَن يأتي إلى هذه المملكة فيما بعد، لا نأذن له أن يصعد إلى الكرسي إن لم يحلف أولا : أنه لا يترك أحدا غير كاثوليكي يعيش في مملكته، وإن كان بعد ما أخذ الحكم يخالف هذا العهد فليكن محروما، قدام الإله السرمدي، وليصر كالحطب للنار الأبدية) . مجموع المجامع من كارتر أوجه ٤٠٤ .

(والمجمع اللاتراني يقول : إن جميع الملوك والولاة وأرباب السلطنة فليحلفوا : أنهم بكل جهدهم وقلوبهم يستأصلون جميع رعاياهم المحكوم عليهم من رؤساء الكنيسة بأنهم هراطقة، ولا يتركون أحدا منهم في نواحيهم، ومن كانوا لا يحفظون هذه اليمين، فشعبهم في حِلٍّ من الطاعة لهم) رأس ٣ (وهذا القانون قد ثبت أيضًا في مجمع قسطنطينية) جلسة ٤٥ .

(ومن رسم البابا مرتينوس الخامس) (وفي اليمين التي حلفت بها الأساقفة تحت رياسة البابا بولينوس الثالث سنة١٥٥١م يوجد هذا الكلام : أن الهراطقة وأهل الانشقاق والعصاة على سيدنا البابا وخلفائه، هؤلاء بكل قوتي أطردهم، أبيدهم) .

والمجمع اللاتراني ومجمع قسطنطينية يقولون: (إن الذي يمسك الهراطقة له إذن وسلطة أن يأخذ منهم كل مالهم ويستعمله لنفسه من غير مانع) مجمع لاتراني ٤ مجلد ٢ فصل ١ وجه ١٥٢ ومجمع قسطنطينية جلسة ٤٥ مجلد ٧ (والبابا اينوشنيسوس الثالث يقول: إن هذا القصاص على الهرطقة نحن نأمر به كل الملوك والحكام، ونلزمهم إياه تحت القصاصات الكنائسية) رسم ٧ كتاب ٥.

وفي سنة ١٧٢٤م وضع الملك لويس الحادي عشر ثمانية عشر قانونًا.

أولها: أننا نأمر أن الديانة الكاثوليكية وحدها، تكون مأذونة في مملكتنا، وأما الذين يتمسكون بديانة أخرى فليذهبوا إلى الاعتقال طول حياتهم، والنساء فلتقطع شعورهن ويحبسن إلى الموت!

وثانيها: أننا نأمر أن جميع الواعظين الذين جمعوا جماعات على غير العقائد الكاثوليكية، والذين علموا أو مارسوا عبادة مخالفة لها يعاقبون بالموت. وفي مخاطبة الأساقفة في أسبانيا للملك سنة ١٧٦٥م يقولون له: أعط الرسوم كل قوتها، والديانة كل مجدها، لكن تسبب هذه المقالة منا تجديد قوانين سنة ١٧٢٤م المذكورة (وكان من جملة رسوم إنكلترا تحت رياسة البابا: أن كل مَن يقول إنه لا يجوز أن يسجد للأيقونات:

يحبس في السجن الشديد، حتى يحلف أنه يسجد لها، والأسقف أو القاضي الكنائسي له سلطان أن يحضر إليه، أو يحبس كل من يقع عليه الشبهة: أنه هرطيقي، والهرطيقي العنيد فليحرق بالنار قدام الشعب، وجميع الحكام فليحلفوا أنهم يعينون هذا القاضي على استئصال الهراطقة الذين عندما تظهر هرطقتهم تسلب أموالهم ويسلمون إليه، وتمحى خطاياهم بلهيب النار). كوك فرائض عدد ٣ وجه ٤٠، ٤١ وأيضاً عدد ٤ وجه ١٥ (وبارونيوس يقول: عن الملك كارلوس الخامس، كان يظن برأيه الباطل: أنه يستأصل الهراطقة ليس بالسيف، بل بالكلام، وفي فهرس الكتاب المقدس المطبوع في رومية باللاتيني والعربي تحت حرف الهاء يوجد هذا التعليم: أن الهراطقة ينبغي لنا أن نهلكهم، ويورد الإثبات على ذلك: أن الملك ياهو قتل الكهنة الكذبة، وإيليا ذبح كهنة باعل، وغير ذلك. فإذن هكذا ينبغي لأولاد الكنيسة أن يهلكوا الهراطقة).

ثم في الصفحة (٣٤٧، ٣٤٨): (والمؤرخ منتوان المتقدم في رياسة الكرمليين مع غيره من المؤرخين، يخبرنا عن كاروز بالإنجيل معتبر، يقال له (توما) من رودن، أحرقه البابا بالنار، لأنه كرَّز ضد فسادات الكنسية الرومانية، والمؤرخون يدعونه قديساً وشهيداً حقيقيًّا للمسيح).

وفي الصفحة (٣٥٠ إلى ٣٥٥): (في سنة ١١٩٤م أمر

الديفونسو ملك اراغون في أسبانيا بنفي الواضيين من بلاده، لأنهم هراطقة ... وفي سنة ١٢٠٦م رغما عن الأمير رايمون والي مدينة ثولوس، أرسل البابا قضاة بيت التفتيش إلى تلك المدينة، لأن الأمير المذكور كان قد أبى أن ينفي هؤلاء الواضيين، ثم بعد قليل أرسل ملك فرنسا بطلب البابا إلى تلك المدينة ونواحيها عسكرًا، عدده ثلثمائة ألف، فحاصر الأمير رايمون في مدينته لأجل المحاماة عن نفسه، ولكي يدفع القوة بالقوة، فذُبح في ذلك القتال ألف ألف (مليون)، وانكسر أهل رايمون، وأحاط بهم كل صنف من الإهانات والعذابات، وكان البابا في حركة هذه الحروب يقول لقومه: إننا نعظكم ونحتم عليكم أن تجتهدوا في ملاشاة هذه الهرطقة الخبيثة: هرطقة الألبجيين أي الواضيين، وتطردوهم بيد قوية أشد مما يكون ضد الساراجين أي المسلمين ...

وفي سنة ١٤٠٠م في آخر شهر كانون الأول، قام أهل البابا بغتة على الواضيين في اوديابيت مونت بلاد ملك سردينيا، فهربوا من وجوههم بلا قتال، ولكن قتل كثيرون بالسيف، وكثيرون ماتوا بالثلج.

ثم إن البابا بعد ذلك بسبع وثمانين سنة، كلف البرتوس ارشيديا كونوس في مدينة كريمونا: أن يحارب الواضيين في النواحي القبلية من فرنسا، وفي أوديابيت مونتن حيث بقي البعض

منهم من الذين رجعوا بعد الحرب في سنة ١٤٠٠م، وهذا الرجل المذكور تقدم حالاً ومعه ثمانية عشر ألف محارب، وأقام تلك الحرب التي استمرت نحو ثلاثين سنة على المسيحيين الذين قالوا: نحن في كل وقت نكرم الملك ونؤدي الجزية، ولكن أرضنا وديانتنا التي ورثناها من الله ومن آبائنا لا نريد أن نتركها، وفي كالابريا من بلاد إيطاليا سنة ١٥٦٠م قتل ألوف ألوف، من البروتستنتيين، بعضهم قتلهم العسكر، وبعضهم محكمة التفتيش.

قال أحد المعلمين الرومانيين: إنني أرتعد كلما أفتكر بذلك الجلاد، والخنجر الدموي بين أسنانه، والمنديل يقطر دمًا بيده، وهو متلطخ بيديه إلى الأكارع، يسحب واحداً بعد واحد من السجن، كما يفتك الجزار بالغنم!!

وفي سنة ١٦٠١م نفى دوك السافوي خمسمائة عائلة من الواضيين . . .

وأيضًا سنة ١٦٥٥م وسنة ١٦٧٦م تجددت الاضطهادات عليهم في أودياييد مونت، لأن الملك لويس الرابع عشر بإشارة من البابا تقدم إليهم بجيشه، وهم في بيوتهم بغاية الطمأنينة، فذبح العسكر خلقًا كثيراً منهم، ووضعوا في الحبس أكثر من عشرة الآف، فمات كثير منهم من الزحام والجوع، والذين سلموا أخرجوهم لكي ينزحوا من تلك البلاد، وكان ذلك اليوم شديد

البرد والأرض مغطاة بالثلج. والجليد، فكان كثير من الأمهات وأولادهن في أحضانهن موتى على جانب الطريق من البرد..

وكارلوس الخامس سنة ١٥٢١م، أخرج أمراً في طرد البروتستنتيين في بلاد فلامنك عن رأي البابا، وبسبب ذلك قتل خمسمائة ألف نفر!!

وبعد كارلوس تولى ابنه فيلبس، ولما ذهب إلى أسبانيا سنة ١٥٥٩م، استخلف الأمير ألفا على طرد البروتستنتيين، والمذكور في أشهر قليلة قتل على يد الجلاد الملوكي الشرعي ثمانية عشر ألفاً، وبعد ذلك كان يفتخر بأنه قتل في كل المملكة ستة وثلاثين ألفا! والقتيل الذي يذكره المعلم كين في عيد مار برثولماوس، كان في آب سنة ١٥٧٢م في وقت السلامة الكاملة، وكان الملك ملك فرنسا قد وعد بأخته لأمير نافار، وهو من علماء البروتستنتيين وأشرافهم، ثم اجتمع هو وأصدقاء أعيان كنيستهم في باريس لأجل استتمام الوعد بالزواج، ولما ضربت النواقيس لأجل الصلاة الصباحية، قاموا بغتة حسب اتفاقهم السابق على الأمير وأصحابه، وعلى جميع البروتستنتيين في باريس، فذبحوا منهم عشرة آلاف شخص!

وهكذا جرى أيضاً في روين وليون وأكثر المدن في تلك البلاد، حتى قال البعض من المؤرخين: إنه قتل نحو ستين ألفا.

واستمر هذا الاضطهاد مدة ثلاثين سنة، لأن البروتستنتيين أمسكوا سلاحهم لكي يدفعوا القوة بالقوة، ومات في هذه الحرب منهم تسعمائة ألف.

ولما سمع في رومية فعل ملك فرنسا في عيد مار برثولماوس، أطلقوا المدافع من الأبراج، وذهب البابا مع الكردناليين ليرتل مزمور الشكر في كنيسة الرومانية بهذا العمل، فلما جلس الملك هنري الرابع على كرسي فرنسا قطع هذا الاضطهاد سنة ١٥٩٣م. لكن يظن إنه قتل لأجل عدم تسليمه بالاغتصاب في أمر الدين.

(ثم أنه في سنة ١٦٧٥م تجدد الاضطهاد وبعدما قتل خلق كثير يقول المؤرخون: إن خمسين ألفا اضطروا أن يتركوا بلادهم لكي ينجوا من الموت) انتهى كلامه، ونقلت عبارة هذا الكتاب بألفاظها من الرسالة الثانية عشرة.

* * *

(ملحق ٥)
بعض ما فعل البروتستانت انتقاما من الكاثوليك

وإذا عرفت حال ظلم فرقة الكاثوليك، فاعلم أن حال ظلم فرقة بروتستانت قريب منه، وأنقل هذا الحال عن كتاب (مرآة الصدق) الذي ترجمه القسيس طامس انكلس من علماء الكاثوليك، من اللسان الإنكليزي إلى أردو، وطبع سنة ١٨٥١م من الميلاد. ويوجد هذا الكتاب عند أهل هذه الفرقة في الهند كثيراً.

وفي الصفحة (٤١، ٤٢) : (سلب بروتستنت في ابتداء أمرهم ستمائة وخمسة وأربعين رباطا، وتسعين مدرسة، وألفين وثلاثمائة وستة وسبعين كنيسة، ومائة وعشر مارستانات من أملاكها، فباعوها بثمن بخس وتقاسمها الأمراء فيما بينهم، وأخرجوا ألوفا من المساكين المفلوكين عرايا من هذه الأمكنة).

ثم قال في الصفحة (٤٥) : (امتد طمعهم أنهم ما تركوا الأموات أيضاً، بل آذوا أجسادهم في نوم العدم وسلبوا أكفانهم).

ثم قال في الصفحة (٤٨، ٤٩) : (وضاعت في هذه الغنائم

كتبخانات ذكرها جيء بيل متحسرا بهذه الألفاظ: إنهم سلبوا كتبا واستعملوا أوراقها في الشواء، وفي تطهير الشمعدانات والنعال، وباعوا بعض الكتب على العطارين وباعة الصابون، وباعوا كثيرا منها ما وراء البحر على أيدي المجلدين، وما كانت هذه الكتب مائة أو خمسين، بل المراكب كانت مملوءة منها، وأضاعوها بحيث تعجب الأقوام الأجنبية، وإني أعلم تاجراً اشترى كتبخانتين كل منهما بعشرين رُبيَّة. وبعد هذه المظالم ما تركوا من خزائن الكنائس إلا جدراناً عريانة، ثم ظنوا أنفسهم من أهل الوقار، وملأوا الكنائس من أناس من أهل ملتهم).

ثم قال في الصفحة الثانية والخمسين إلى الصفحة السادسة والخمسين: (فلنلاحظ الآن أفعال الجور التي فعلها بروتستنت في حق فرقة الكاثوليك إلى هذا الحين، أنهم قرروا أكثر من مائة قانون كلها خلاف العدل والرحمة، لأجل الظلم، ونحن نذكر عدة من هذه القوانين الجورية.

١ – لا يرث كاثوليكي تركة أبويه.

٢ – لا يشتري واحد منهم أرضا بعد ما يجاوز عمره ثماني عشرة سنة إلا أن يصير بروتستنت.

٣ – لا يكون لهم مكتب.

٤ – لا يشتغل أحد منهم بالتعليم، ومَن خالف هذا الحكم يحبس دائما.

٥ – مَن كان من هذه الملة يؤدي ضعف الخراج .

٦ – إن صلى أحد من قسوسهم فعليه أداء ثلاثمائة وثلاثين ربية من ماله، وإن صلى أحد منهم ولا يكون قسيسا فعليه أداء سبعمائة ربية ويسجن سنة .

٧ – إن أرسل أحد منهم ولده خارج إنكلترا للتعليم، يقتل هو وولده ويسلب أمواله ومواشيه كلها .

٨ – لا يعطي لهم منصب في الدولة .

٩ – مَن لم يحضر منهم يوم الأحد أو العيد في كنيسة بروتستنت، تؤخذ منه ألف ربية مصادرة .

١٠ – مَن ذهب منهم بعيدا من لندن مسافة خمسة أميال، يؤخذ منه ألف ربية مصادرة .

١١ – لا يسمع استغاثة أحد منهم عند الحكام بحسب القانون .

١٢ – ما كان أحد منهم يسافر أكثر من خمسة أميال، مخافة أن ينهب ماله ومتاعه، وكذا ما كان أحد منهم يقدر على الاستغاثة في أمر عند الحكام، مخافة أن يؤخذ منه ألف ربية مصادرة .

١٣ – لا تنفذ أنكحتهم ولا تجهيز موتاهم ولا تكفين الموتى ولا تعميد أولادهم إلا إذا كانت هذه الأمور على طريقة كنيسة إنكلترا .

١٤ - إن تزوجت إحدى نساء هذه الملة، تأخذ الدولة من جهازها ثلثين، ولا ترث من تركة زوجها، ولا يوصي زوجها لها من تركته بشيء، ونساؤهم كن يحبسن إلى أن يعطي أزواجهن عشر ربيات في كل شهر أو يعطوا ثلث أراضيهم إلى الدولة.

١٥ - ثم صدر الحكم في نهاية الأمر إن لم يصر كلهم بروتستنت يسجنون ثم يجلون من أوطانهم مدة حياتهم، وإن رفضوا الحكم أو رجعوا من الجلاء بدون الأمر كانوا ملزمين بإلزام عظيم.

١٦ - لا يحضر القسيس عند قتلهم ولا عند تجهيزهم وتكفينهم.

١٧ - لا يكون السلاح في بيت أحد منهم.

١٨ - لا يركب أحد منهم على حصان يكون ثمنه أكثر من خمسين ربية.

١٩ - إن أدى قسيس منهم خدمة من الخدمات المتعلقة به يسجن دائماً.

٢٠ - القسيس الذي يكون مولده إنكلترا، ولا يكون من ملة بروتستنت، إن أقام أكثر من ثلاثة أيام في إنكلترا يعتبر أنه غدار ويقتل.

٢١ - من أنزل القسيس المذكور من مكانه يقتل.

٢٢ - لا تقبل شهادة كاثوليكي في العدالة.

وقتل على هذه القوانين الجورية في عهد الملكة اليصابت مائتان وأربعة أشخاص. كان منهم قسيسون، والباقون من أهل الغنى، وما كان ذنبهم غير أنهم أقروا أنهم من ملة الكاثوليك، ومات تسعون قسيسا وكبار آخرون في السجن، وأجلي مائة وخمسة أشخاص مدة حياتهم، وضرب كثير منهم بالسياط، وصودروا وحرموا من أموالهم، حتى هلكت عشيرتهم، وقتلت ميري المشهورة ملكة أسكات، وكانت بنت الخالة للملكة اليصابت، بسبب كونها من ملة الكاثوليك.

ثم قال في الصفحة الحادية والستين إلى السادسة والستين: (حمل كثير من رهبانهم وعلمائهم بأمر الملكة اليصابت في المراكب، ثم أغرقوا في البحر. جاء عساكرها إلى إيرلاندا ليدخلوا أهل ملة كاثوليك في ملة بروتستنت، فأحرقوا كنائس الكاثوليك وقتلوا علماءهم، وكانوا يصطادونهم كاصطياد الوحوش البرية، وكانوا لا يؤمِّنون أحداً وإن أمَّنوا أحداً قتلوه أيضاً بعد الأمان، وذبحوا العسكر الذي كان في حصن سمروك، وأحرقوا القرى والبلاد، وأفسدوا الحبوب والمواشي، وأَجْلَوْا أهلها بلا امتياز (أي اعتبار) المنزلة والعمر. ثم أرسل بارلمنت سنة ١٦٤٣م وسنة ١٦٤٤م اللوردات ليسلبوا جميع أموال الكاثوليك وأراضيهم بلا امتياز بينهم، وبقي أنواع الظلم إلى زمن الملك جيمس الأول، وحصل التخفيف في الظلم في عهده، ثم رحمهم الملك سنة

١٧٧٨م، ولكن البروتستنتيين سخطوا عليه، وقدموا معروضًا إلى السلطان من جانب أربعة وأربعين ألفا من فرقة بروتستنت في ثاني حزيران سنة ١٧٨٠م، واستدعوا أن يبقي بارلمنت القوانين الجورية في حق مِلة الكاثوليك كما كانت. لكن البرلمان ما التفتوا إليه، فاجتمع مائة ألف من بروتستنت في لندن وأحرقوا الكنائس، وهدموا أمكنة الكاثوليك. وكان الحريق يرى من موضع واحد في ستة وثلاثين مكانا، وكانت هذه الفتنة قائمة إلى ستة أيام، ثم أوجد الملك قانونا آخر سنة ١٧٩١م وأعطى مِلة الكاثوليك حقوقا هي حاصلة لهم إلى هذا الحين).

ثم قال في الصفحة (٧٣، ٧٤): (ما سمعتم حال جار تراسكول الذي هو في أيرلندا هذا الأمر محقق: أن بروتستنت يجمعون في كل سنة مقدار مائتي ألف وخمسين ألف ربية، وكراء أكثر المكانات الكبيرة، ويشترون بها أولاد فرقة الكاثوليك الذين هم من المساكين المفلوكين.

ويرسلون بهم في العربات إلى إقليم آخر بالخفية، لئلا يرى آباؤهم وأمهاتهم، ويقع كثيرا أن هؤلاء الأشقياء إذا رجعوا إلى أوطانهم، تزوجوا بأخواتهم أو أخوتهم أو آبائهم أو أمهاتهم للجهل وعدم التمييز) انتهي كلامه.

والظلم الذي صدر عن بعض فرق بروتستنت بالنسبة إلى بعض آخر، لا أنقله حذراً من التطويل، وأكتفي بهذا القدر،

وأقول: انظروا إلى هؤلاء الطاعنين على المِلة المحمدية كيف ملأوا ملتهم بالجور والظلم[1] ؟! انتهى.

وإن المرء المسلم ليقفُّ شعره، ويقشعر جلده، حينما يقرأ هذه الصفحات السود، التي تصور جانبا من المجازر البشرية، والمظالم الدينية، التي ارتكبها النصارى في حق اليهود، والتي ارتكبها المسيحيون الكاثوليك في حق فئة البروتستانت عند ظهورها، وبعد ظهورها بمئات السنين، والتي ردَّ عليهم البروتستانت بمثلها، أو أشد منها حين ظهروا عليهم، وآلت لهم السلطة.

إن هذه الصفحات المظلمة من الإسراف البالغ في سفك الدماء: لم تكتبها أقلام مسلمة، بل سطرتها أقلام مسيحية، تتكلم بلغة الأرقام. ومع هذا نجد من المسيحيين المبشرين والمستشرقين – ومنهم البابا بنديكت السادس عشر – مَن يتهم المسلمين بأنهم متعصبون، واتهم دينهم إنما قام على السيف!

حتى قال بعض أحرار الأوربيين: لم يصدق المسيح في نبوءة من نبوءاته، مثل ما صدق في قوله: ما جئت لألقي على الأرض سلاما، بل سيفا! إذ لم يعرف التاريخ عن مِلة قتل أهلها بعضهم بعضا مثل ما حدث في الملة المسيحية، أو عشر معشاره!

---

(١) انظر: إظهار الحق (٢/٥٠٩ – ٥٢٨) طبعة إحياء التراث الإسلامي في قطر.

ومَن نظر في تاريخ المسيحيين في مختلف الأطوار، وفي شتى الأقطار: تبيّن لهم: أن فكرة (إبادة المخالفين واستئصالهم): فكرة أصيلة في ذهنيتهم وتربيتهم الدينية، ومواريثهم الثقافية. واستباحةُ الدماء بالألوف والملايين: أمر هين عليهم، لا يقلق ضمائرهم، ولا يؤرق جفونهم. فلا عجب أن رأينا الأوربيين من المسيحيين الذين ذهبوا إلى أمريكا، اجتهدوا أن يستأصلوا أهلها الأصليين من الهنود الحمر، واستحلوا كل حرام من أنواع القتل والإبادة في ذلك، حتى أبادوا الملايين منهم بأساليب وحشية لا يقرها دين ولا خلق.

كما أن المسيحيين الذين ذهبوا إلى أستراليا فعلوا مثل ذلك بسكانها الأصليين، الذين أبادوهم، والمسلمون الذين بقوا في أسبانيا (الأندلس) ثمانية قرون أقاموا فيها حضارة شامخة متميزة، استنارت بها واستفادت منها أوربا كلها: أبيدوا كلهم، إما بالإكراه على التنصر، أو مواجهة القتل، أو الإجبار على الرحيل في طرق كلها أخطار، ولا عجب أن لم يبق منهم في أسبانيا ديار ولا نافخ نار!!

* * *

(ملحق ٦)
مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ

تحت هذا العنوان كتب الإمام محمد عبده يقول :

(لا أجد في التاريخ ذكرا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده، إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يُفصل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء، فتخمد شعلة العلم، وينتصر الدين المحض!

وإنما الذِّكر كل الذِّكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون، وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك في الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ، وليس من موضوعنا الكلام فيه.

ولكني أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوربا بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس، واحتكاك الأوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية.

رجع الآلاف من الغُزاة الصليبيين إلى بلادهم، وحملوا إلى الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء

الكنيسة، من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة، وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مُفترسة، فلما قفل الغُزاة إلى ديارهم قصُّوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة، وذوي ودٍّ ووفاء، وفضل ومُجاملة.

ثم كان الخليفة (الحكم الثاني) جعل من بلاده الأندلس فردوسا، كما قال الفيلسوف الأمريكاني، وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحُرية، قال بطرس المحترم الشهير: إنه رأى كثيرا من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقِّي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا، وأولئك الذين يسعَون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحبا وسَعة، وكان قصر الخليفة يُشبه أن يكون مصنعا للكتب - نسخ وتذهيب وتجليد - إلخ ما قال.

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب، ثم وُجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آرائهم بعد أن تنبَّهت أفكارهم بما جلب إليهم رُسُل العلم الذين حملوه إليهم من أهالي أسبانيا، ومن حملوه مما جاورها، ثم انساب إلى العلم شيء مما سماه الأوربيون فلسفة ابن رشد، وعند ذلك اهتمَّت المسيحية بالأمر، وأخذت تُحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يُخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

قال دي رومنيس: إن قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله

ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء، فجُلب إلى روما وحُبس حتى مات، ثم حُوكمت جثته وكتبه، فحُكم عليها وأُلقيت في النار، وقيل في علة الحكم: إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وإنكلترا، وأي ذنب أعظم من هذا الصلح؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء.

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش:

أُنشئت المُراقبة على المطبوعات، وحُتِّم على كل مؤلِّف وكل طابع أن يعرض مؤلَّفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عُين للمُراقبة، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان مَن يطبع شيئاً لم يُعرض على المُراقب، أو ينشر شيئاً لم يأذن المُراقب بنشره، وأُوعز إلى هذا المُراقب أن يُدقِّق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومئ إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية، ووُضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد: أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتُجرى عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين).

أُنشئت محكمة التفتيش لمُقاومة العلم والفلسفة عندما خِيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، خصوصا في جنوب فرنسا وإيطاليا. أُنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا.

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام، ففي مدة ١٨ سنة – من سنة ١٤٨١م إلى ١٤٩٩م – حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يُحرقوا وهم أحياء، فأُحرقوا، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير، فشُهِّروا وشُنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنُفذت، ثم أُحرقت كل توراة بالعِبرية.

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة (المقدسة)؟ وسيلة واحدة: هي أن يُحبس المُتهم، وتُجرى عليه أنواع العذاب المُختلفة بآلات التعذيب المتنوعة، إلى أن يعترف بما نُسب إليه، وعند ذلك يصدُر الحكم، ويعقُبه التنفيذ.

قرَّر مجمع (لاتران) سنة ١٥٠٢م: أن يلعن كل مَن ينظر في فلسفة ابن رشد، وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه، ولعن مَن ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة، لكن ذلك لم يمنع الأُمراء وطلاَّب العلوم من كل طبقة من تلمُّس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه، وتحلية العقول ببعض أفكاره.

اشتدَّت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين، طلاب العلم والسعاة إلى كسبه، ونيط بها كشف البدعة، والحكم فيها مهما اشتدَّ خفاؤها: في المدن، في البيوت، في السَّراديب، في الأنفاق، في المخازن، في المطابخ، في المغارات، في الغابات وفي الحقول. فوفَّت بما كُلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب

الغيرة على الدين، عملا بالقول الجليل: (ما جئتُ لأُلقي سلاما بل سيفا).

كان يُؤخذ الرهبان في صوامعهم، والقسوس في كنائسهم، والأشراف في قصورهم، والتجار بين بضائعهم، والصناع في مصانعهم، والعامة في بيوتهم ومزارعهم، وحيثما وُجدوا، وأينما ثُقفوا، ويُوقفون أمام المحكمة، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم.

قرر مجمع (لاتران) أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها).

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد، فيكون مما تُسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدُر من لسانه في بيته، وما يُظهره في أعماله بين أهله. فإذا وجد القسيس مُتلقِّي الاعتراف شيئا من الشُّبهة في طلب العلم غير المقدس على مَن سأل عنه، رفع أمره إلى المحكمة، فينقضُّ شهاب التُّهمة عليه. فإذا سُئل عن الشاهد الذي عوّل عليه في اتهامه لا يجاب، وإنما يُقام التعذيب مقام شخص الشاهد، وهو من أهله حتى يعترف.

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ما يُخيل لكل مَن يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه: أن رسول الشؤم يتبعه، وأن السلاسل والأغلال

أسبق إلى عنقه ويديه ومن وُرود الفكرة العلمية إليه، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد: (يقرُب من المُحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه).

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٨٠٨م على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة، منهم نحو مائتي ألف أُحرقوا بالنار أحياء.

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة:

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجَّر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس، وكان ابن رشد أستاذا يتعلَّم عنده كثير من اليهود، وقد اتُّهموا بنشر أفكاره وآرائه، ثم هو مع ذلك مسلم، صُبَّ غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا، فصدر الأمر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢م بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان، وعلى أي حال كان: يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليو (تموز)، ومَن رجع منهم إلى هذه البلاد عُوقب بالقتل، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول، بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهبا ولا فضة! وإنما يأخذون الأثمان عُروضا وحوالات، ومَن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟ (يعني أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي تمَّ في يوليو)، وصدر أمر (توركماندو): أن لا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا في أمر من أمورهم، وهكذا خرج اليهود، تاركين كل ما يملكون، بأرواحهم

على أنه لا نجاة لكثير منها، فقد اغتالها الجوع ومشقَّة السفر مع العدم والفقر.

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢م نُشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (أي المسلمين) من إشبيلية وما حولها، مَن لم يقبل (المعمودية) منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل (نيسان)، وأُبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وُضع لليهود، ولكن وضع للمسلين شرط آخر، وهو ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومَن خالف ذلك فجزاؤه القتل! فهؤلاء المساكين نُفوا جميعا إلى القتل، إنِ لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع، فالموت مُلاقيهم بالتعب مع العُرى والجوع.

ألا يعجب القارئ إذا رأى أن (برونو) يُحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠م، لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود، وقال: إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة؟ (الحمد لله رب العالمين).

ظهر القول بكُروية الأرض - ذلك الأمر الذي عرَفه المسلمون وصار رأيا لهم في أول خلافة بني العباس، ولم تتحرك له شعرة في بدن - فأحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية، ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه.

هل يصدق القارئ أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الأطلانطيقي لعله يكتشف أرضا جديدة، كان من الأمور التي اهتمَّت لها الكنيسة، وحكم مجمع (سلامانك)

بأنه مُخالف لأصول الدين، ثم أُعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزستوم، وأوغستين، وجيروم، وغريغوار، وبازيل، وانبروازو، وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم يُنتج هذا العرض شيئا، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم. قال كريستوف كولمب: (إن الذي أوحى إليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد)، من هنا تفهم لِمَ قامت الكنيسة وقعدت؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم؟

ما أشد تمسُّك الكنيسة بهذا الأصل الجليل: (السلطة للقسوس، والطاعة للعامة)، كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الأرض والسماء، فهو باطل، تجب مُقاومته بكل ما يُستطاع! لهذا حُكم على غاليلي الذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد:

هل تدري ماذا حصل من المُقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الأستانة، ثم نقلتها إلى أوربا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١م، فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها، واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك إنكلترا، وعادت هذه الشدَّة في المُعارضة عندما اكتُشف طريقة تطعيم الجُدَري!!

مقاومة تسهيل الولادة:

أيُّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة، حتى لا تُحسَّ بألم الطلق، اكتشاف أمريكاني رأى حضرات القسوس فيه أنه يُخلِّص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سُجلت عليها في سفر التكوين: (إذ جاء في الإصحاح الثالث منه: وقال للمرأة: تكثيرا أُكثِّر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادا).

هذا بعض ما ذكره العلامة محمد عبده من الوقائع والآثار العملية للأصول المسيحية الدينية في حياة الشعوب المسيحية، ولا سيما فيما يتعلق بالعلم والفكر والثقافة، وهي وقائع واضحة الدلالة، ولا تحتاج إلى تعليق.

فأين هذا التاريخ الأسود المظلم الجنبات في مقاومة العلم والفكر، ومحاربة التجديد والابتكار، والإصرار على إبقاء كل قديم على قدمه.. مما يحكيه تاريخ المسلمين المشرق: من علوم قديمة تجدد، ومعارف موروثة تهذب، وعلوم جديدة تخترع.

كل ذلك بمباركة علماء الدين الإسلامي وتأييدهم، بل بمشاركة بعضهم مشاركة فعلية في العلوم الطبيعية والرياضية، كما سجل لهم ذلك تاريخ العلم بكل جلاء. وسنذكر شيئا من ذلك فيما يأتي إن شاء الله.

* * *